جهود المؤرخين المعاصرين في خدمة السيرة النبوية

الدكتور محمد موسى الشريف[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن المؤرخين المُحدثين الذين كتبوا في السيرة النبوية عدد قليل جداً، خلاف المؤرخين القدامى الذين لا يكاد يشذ منهم أحد في كتابة السيرة النبوية، سواء في كتاب مستقل أو ضمن التاريخ العام، وهذا أمر معروف بَيِّن لمن اطلع على أعمال المؤرخين القدامى والمحدثين.

وقد كتب في السيرة النبوية جمع جَمٌّ ضخم من الدعاة والأدباء وقادة الثقافة والفكر لكن لا يوصف واحد من أولئك بأنه مؤرخ(2)، إلا في النادر.

ولذلك فإن الحديث عن جهود المؤرخين المُحْدثين في كتابة السيرة النبوية هو حديث ضيق، بسبب قلة عدد من كتب منهم السيرة النبوية المشرفة المطهرة.

ولكل ما سبق فإني لن أبحث إلا في أعمال من يوصف بأنه مؤرخ، وأما غيره من العلماء والأدباء والدعاة فلن أعرِّجَ على كتاباتهم في السيرة النبوية.

ولقد اتبعت في بحثي هذا الطريقة التالية:

1. أوردت الكتب التي أريد دراسة منهجها على ترتيبها الزمني، وذلك بحسب سنة وفاة المصنف.
2. أوجزت في بيان مناهج أولئك المصنفين، وأتيت بأخصر العبارات فلم أتوسع لكني أظن أني لم أُقصِّر ولم أترك من مهمات مناهجهم شيئاً.
3. ترجمت لمن أرى أهمية الترجمة لهم مما قد تخفى سيرتهم على أكثر القراء.
4. اتبعت المنهج العلمي فيما أتيت به من نقد، وما أوردته من تعليقات وشروح وغير ذلك.

---

[1] ـــ مشرف على موقع التاريخ. وباحث أكاديمي في العلوم الشرعية.

(2) وذلك كصنيع الأستاذ منير الغضبان في موسوعته: " المنهج الحركي في السيرة النبوية" وكصنيع الدكتور البوطي في كتابه " فقه السيرة " والأستاذ الغزالي – رحمه الله – في كتابه "فقه السيرة" أيضاً، وكذلك الأستاذ السباعي في كتابه "دروس من السيرة النبوية"،وغيرهم ممن كتب في السيرة ولا يوصف بأنه مؤرخ وليس له أعمال تاريخية معروفة وليس له تخصص في التاريخ ولا عناية به.

الكتب المختارة

اخترت ستة كتب أنها تكفي لبيان مناهج المؤرخين المحدثين في كتابة السيرة النبوية، وهذه الكتب هي:

1. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري.
2. محمد ﷺ المثل الكامل للأستاذ محمد أحمد جاد المولى.
3. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي.
4. التاريخ الإسلامي للأستاذ محمود شاكر.
5. دراسات في السيرة النبوية للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل.
6. السيرة النبوية الصحيحة للأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري.

والله — تعالى — أعلم وأعظم، وأجل وأحكم، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

نور اليقين في سيرة سيد المرسلين محمد الخضري بك(1):

هذا كتاب مشهور كتبه مؤرخ معروف، وهو كتاب أُلف في زمان مهم، لم يكن قد كُتب فيه من كتب السيرة على الطريقة الحديثة إلا القليل أو النادر، وذلك أواخر زمن السلطان العثماني عبدالحميد الثاني– رحمه الله تعالى– سنة 1315 أي ما يقارب قرناً مضى وتسعة عشر عاماً مضت من تاريخنا اليوم، بدأه المصنف بمقدمة جميلة، ذكر فيها سبب تصنيفه الكتاب ومصادره فيه، وكان من منهجه في كتابه هذا هو التالي:

أولاً: اتباع طريقة أكثر كتاب السيرة القدامى تقريباً:

سلك المصنف في كتابه طريقة المصنفين القدامى الذي سردوا السيرة من قبل المبعث إلى الوفاة، ولم يشذ عن ذلك، فلم يُعد توزيع مواد السيرة، ولم يخترع سرداً جديداً، إلا أنه بعد فراغه

(1) محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري: باحث، خطيب، من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام. ولد في مصر سنة 1872/1289م وكانت إقامته في "الزيتون" من ضواحي القاهرة، وتوفي ودفن بالقاهرة سنة 1927/1345م. تخرج بمدرسة دار العلوم، وعين قاضياً شرعياً في الخرطوم، ثم مدرساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، مدة 12 سنة، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، فمفتشاً بوزارة المعارف. من كتبه "أصول الفقه "و "و تاريخ التشريع الإسلامي" و "إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء" و "محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية" و "نور اليقين في سيرة سيد المرسلين" و "مهذب الأغاني" تسعة أجزاء و "محاضرات في نقد كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين"، و " الغزالي وتعاليمه وآراؤه" نشر تباعاً في المجلد 34 من مجلة المقتطف و "دروس تاريخية". انظر " الأعلام": 269/6.

من السيرة الشريفة المنيفة أورد فصلاً فيه شمائل النبي صلى الله عليه وسلم اختصره من كتاب "الشفاء" للقاضي عياض[1] -رحمه الله تعالى- ثم أردفه بفصل في معجزاته صلى الله عليه وسلم، فيصح القول إنه بهذا الصنيع قد فارق من سرد السيرة من قبل المبعث إلى الوفاة , ويصح القول- أيضاً- إنه لم يفارق صنيع من سرد السيرة من قبل المبعث الى الوفاة؛ لأنه جعل الفصلين الأخيرين المذكورين آنفاً ملحقين بالكتاب.

ثانياً: الإيجاز:

أوجز المصنف ذكر أحداث السيرة في كتابه هذا، فلم يترك لقلمه العنان، وهذا منهج حسن مناسب لأهل هذا الزمان الذين غلب عليهم هجر القراءة، وصاروا يُعرضون عن مطولات الكتب التي أصبحت كالأيتام على مائدة اللئام.

ثالثاً: عدم ذكر المصادر والمراجع:

قد كان المصنف – رحمه الله تعالى – يسرد أحداث السيرة ولا يعيدها إلى مصادر ولا إلى مراجع وهذا صنيع مرجوح في الميزان العلمي "الأكاديمي"، لكن يشفع للمصنف ما كان عليه أكثر كتاب عصره من اتباع هذه الطريقة، وكذلك يشفع له إيراده مصادره في المقدمة.

وقد كان أحياناً يذكر مصدره بإيجاز – في غير السرد العام للسيرة- إذا أراد التأكيد على شيء بعينه أو بدون سبب واضح – عندي - مثل قوله: " كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط، كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه" [2].

وكقوله: "روى القاضي عياض في الشفا أن عطاء بن يسار...." [3].

ومثل كقوله: " من أشد ما صنع ذلك الشقي برسول الله ﷺ ما رواه البخاري في صحيحه...." [4].

---

(1)هو الشيخ الإمام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليَحْصُبي الأندلسي ثم السبتي المالكي. ولد سنة 476، واستبحر من العلوم، وجمع وألف، واشتهر اسمه في الآفاق، وله شعر حسن. وهو إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. توفي شهيداً مقتولاً بمرّاكُش سنة 544؛ وذلك لإنكاره عصمةَ ابن تُومرت أمير الموحدين. انظر "سير أعلام النبلاء": 20/212-218.

(2) نور اليقين: ص 18.

(3) المصدر السابق: ص 25.

(4)المصدر السابق: ص 49.

رابعاً: ذكر العبر والعظات:

لم يسرد المصنف السيرة سرداً مجرداً من العبر والعظات بل مزجها بهما مزجاً محكماً غير متكلف؛ كقوله في الزهد في الدنيا تعليقاً على رعي النبي ﷺ الغنم:

"ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها، وحال الأنبياء السابقين أعظم شاهد على ذلك "[1].

وكقوله تعليقاً على عدم شرب النبي ﷺ الخمر في الجاهلية وعدم أكله مما ذبح على الأنصاب: "وذلك كله من الصفات التي يحلي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقي وحيه ؛ فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها..." [2].

وكحديثه عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[3]، وكحديثه عن إجلاء بني النضير [4].

خامساً: عدم تخريج الأحاديث وتحقيقها:

لم يخرج المصنف حديثاً أورده إلا في النادر، وكان يورد بعض الأحاديث بالمعنى ضمن سرده لأحداث السيرة، أما تحقيق الأحاديث فلم يفعل إلا في مواطن قليلة منها رده قصة الغرانيق المفتراة فردها اعتماداً على كلام القاضي عياض – رحمه الله تعالى – في توهينها وردها. [5]

سادساً: ذكر الموضوعات والآثار الضعيفة:

أورد المصنف طائفة من الموضوعات والآثار الضعيفة ولم يذكر وضعها أو ضعفها، وهذه آفة وقع فيها كثير ممن كتب في السيرة من المُحْدثين.

من مزايا الكتاب:

للكتاب مزايا عديدة أوردت بعضها في ذكر منهجه، ولكن من أحسن مزايا المصنف أنه أورد المعجزات النبوية ولم يؤولها كصنيع طائفة من معاصريه، ولم يأنف من مخالفة المستشرقين وأذنابهم، بل أوردها كما هي كحادثة شق القمر، وشق الصدر الشريف، وأورد فصلاً كاملاً آخر الكتاب ذكر فيه عدداً من المعجزات أثبتها بلا تأويل ولا تعطيل.

---

(1)المصدر السابق: ص 18.

(2) نور اليقين: ص 21.

(3) ص: 100.

(4) ص:165.

(5) ص: 165.

ومنها رده للكذب الصريح الذي أورده من لا خلاق له من أن النبي ﷺ رأى زينب لما كشفت الريح الستر فألقيت محبتها في قلبه، وكانت عند زيد بن حارثة – رضي الله عنه – فرد المصنف ذلك الكذب رداً حسناً. (1)

وختاماً أقول:

إن الكتاب – في الجملة – حسن الوضع، سلس العبارة، وجيز المباحث، ويعدّ – في الجملة – فاتحة الكتب التي كتبها المؤرخون المحدثون في السيرة النبوية الشريفة المطهرة، وفيه نوع تجديد في عرض السيرة تجلى في مزجها بالعبر والعظات والوقوف عند ما يحسن الوقوف عليه، والتعليق الجيد عليه.

ملحظ:

قام الشيخ محمد العربي بن التباني الجزائري(2) بتصنيف كتاب سماه "تحذير العبقري من محاضرات الخضري" حذر فيه من أقوال للشيخ الخضري في بعض محاضرات له عن تأويل معجزة الطير الأبابيل، وأنه لم يذكر قصة عداس مع النبي ﷺ، وأنه لم يورد قصة سراقة بن مالك مع النبي ﷺ في الهجرة، وأنه أنكر كون الملائكة أجساماً، وأنه تبع في بعض ذلك الأستاذ محمد عبده(3)، رحمه الله تعالى، وأنه رجح أن الإسراء كان مناماً لا يقظة، وغير ذلك، فليُعلم أني لم أر من ذلك شيئاً في كتابه "نور اليقين" بل أورده على الجادة المعروفة من العلماء – رحمهم الله تعالى – فلعله رجع عما كتبه في "نور اليقين" وسطر في محاضراته المطبوعة خلاف ما ذكره في "نور اليقين"، فالله أعلم بما قد كان من ذلك، وأنا إنما أوردت ما اطلعت عليه في كتابه "نور اليقين"، وقد ذكرت هذا الملحظ تنبيهاً للقراء، والله المستعان.

---

(1) ص: 192–193.

(2) هو الشيخ محمد العربي بن التباني بن الحسين بن عبدالرحمن بن يحيى السطيفي الجزائري المكي، المدرس بالحرم الشريف، ولد بقرية رأس الواد من أعمال سطيف بالجزائر سنة 1315، تلقى تعليمه الأولي في قريته، وبعد ذلك رحل إلى تونس ثم المدينة المنورة، ثم بعد ذلك رحل إلى الشام , ثم خرج من دمشق وقصد مكة ومكث بها، توفي –رحمه الله تعالى– في شهر صفر سنة 1970/1390 بمكة المكرمة.

(3) محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال التجديد في الإسلام، ولد في إحدى قرى الغربية بمصر سنة 1266، وتعلّم بالجامع الأحمدي بطنطا ثم بالأزهر ثم تصوّف وتفلسف، وعمل في التعليم وكتب في الصحف، وتولى تحرير جريدة الوقائع المصرية، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، ولما احتل الانكليز مصر ناوأهم فسجن ثم نفي سنة 1299 إلى باريس فأنشأ مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى وعاد إلى بيروت فمصر سنة 1306 فتولى منصب القضاء ثم جُعل مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم مفتياً للديار المصرية سنة 1317 فاستمر إلى أن توفي بالإسكندرية سنة 1905/1323 , رحمه الله تعالى. له عدة مصنفات، وهناك كلام مطول في نقض بعض أعماله وتصرفاته، والله أعلم بما قد ثبت من ذلك. وانظر "الأعلام": 252/6–253.

محمد ﷺ" المثل الكامل" الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك[1]

قد صنف المؤلف – رحمه الله تعالى- كتابه هذا على وجه فريد بين الكتب، ولعل له قصب السبق بين المؤرخين في هذه الطريقة من التصنيف ؛ فقد جاءت أبواب كتابه على النحو التالي الذي يبين أوليته وسبقه في تقسيمه هذا الذي ذهب إليه:

الباب الأول: إلى محمد ﷺ تُرد الفضائل جميعها:

وضمنه فضائله الذاتية ﷺ ومولده وشرف نسبه، وحسن نشاته، وطريقته الجميلة في التعامل مع أصحابه وغيرهم.

الباب الثاني: محمد ﷺ بين الرسل.

الباب الثالث: الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي اقتضت بعثة محمد ﷺ :

وضمنه حال الأمم الأخرى في الجاهلية وحال العرب قبل البعثة.

الباب الرابع: مراحل حصول النبوة واستقرارها.

الباب الخامس: الأدلة القاطعة على صدق نبوته ﷺ.

وضمنه معجزات النبي ﷺ وفضائله الدالة على صدقه، ومن محاسن صنيعه أنه قسم الدلائل إلى عقلية ونقلية فأجاد ووفى.

الباب السادس: محمد ﷺ أكبر المصلحين نجاحاً.

وضمنه المعاهدات، واستقبال الوفود، ومراسلاته للملوك، ونجاحه في حروبه ﷺ.

الباب السابع: محمد ﷺ أوفى الأنبياء ديناً.

وضمنه مزايا دين الإسلام العظيم، وأسباب تعدد زوجاته – رضي الله تعالى عنهن- والرق في الإسلام وفي الأمم الأخرى، وأورد فيه جملة من مقاصد الإسلام عظيمة جليلة على وجه حسن رائع.

([1]) محمد أحمد جاد المولى: باحث مصري ولد سنة 1300/ 1883م وابتدأ حياته مدرساً، وانتدب لتدريس العربية في جامعة أكسفورد سنة 1910–1913، وعاد فعين مفتشاً بوزارة المعارف، فمراقباً للمجمع اللغوي، فمفتشاً أول بالوزارة. ومرض يومين، وتوفي بالقاهرة سنة 1363/1944. من كتبه " محمد ﷺ المثل الكامل" و"الخلق الكامل" و"انشقاق القمر معجزة لسيد البشر" و"إنصاف عثمان رضي الله عنه" و" دستور الأفراد والأمم، في سنن سيد العرب والعجم" هُيء للطبع. وله مشاركة في تأليف كتب منها "قصص القرآن"و "مهذب رحلة ابن بطوطة" و "قصص العرب" أربعة أجزاء، و "أيام العرب في الجاهلية". انظر. "الأعلام": 23/6.

الباب الثامن: محمد ﷺ أشرف الخلق.

الباب التاسع: محمد ﷺ أجدر الناس بالإيمان به ومحبته واتباعه وطاعته.

الباب العاشر: موجز السيرة النبوية

وسرد فيه السيرة بإيجاز شديد.

فكتابه هذا على هذا التقسيم أشبه بكتب الشمائل منه بكتب السيرة لولا الباب العاشر الذي أودعه موجزاً للسيرة النبوية، ولولا ما بثه في ثنايا كتابه من أخبار السيرة المشرفة المطهرة.

ومن مزايا كتاب الأستاذ ما يلي:

1- حُسن العرض وجمال العبارة:

الكتاب بديع التقسيم، حسن العرض للمادة، عبارة المصنف فيه عبارة أدبية سليمة ورصينة، وجزلة فخمة، وللدلالة على ذلك أسوق بعض قوله في المقدمة إذ قال:

"ولما كانت سيرة محمد ﷺ من مولده إلى مماته ثابتة ثبوتاً لا مرية فيه فجميع أعماله مدونة، وأحاديثه مسطورة شاملة لما يحتاج إليه بنو البشر في معاشهم ومعادهم، وكانت حياته ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بإنهاض بني الإنسان وتثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم وإصلاح شؤونهم كان هو المثل الكامل.

ولا غرو فهو خير البرية طفلاً، وأنجبها كهلاً، أطهر المطهرين شيمة، وأمطر المُسْتَمطرين ديمة[1]، وهو خير أسوة: للفرد في قبيلته، والزوج مع زوجه، والأب مع ولده، والمربي مع تلميذه، والواعظ مع مستمعيه، والجندي في حومة الوغى، والقائد في تدبيره، والمتشرع في أحكام شريعته، والقاضي في قضائه، والسياسي في حكومته، والملك في رعيته، والمسالم لأوليائه، والمحارب لأعدائه، والعابد في محرابه، والزاهد في قناعته.

كل أولئك يجدون من حياته العملية مُثُلاً يحتذونها، وروحاً يقوون بها على مزاولة أعمالهم، وإماماً يسيرون عليه في تحقيق مآربهم، ومرداً يرجعون إليه عند حيرتهم، وإن اختلفت مشاربهم وتباينت ألوانهم.

والله أسأل أن يهدي الناس إلى اتباع سنته السنية، واقتفاء سيرته الزكية، والاقتداء به في أخلاقه وأفعاله، والتأسي به في حربه وسلمه، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه , والعمل بدينه، فهو عز

(1) الديمة: المطر يطول زمانه في سكون، والجمع دِيَم. "المعجم الوسيط": دي م.

لا تُهزم أنصاره، وحق لا تُخذل أعوانه، وسلْم لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وبرهان لمن تكلم به، وشاهد لمن خاصم به، وآية لمن توسم، وجُنّة لمن استلأم[1]، وعِلْم لمن وعى، وحديث لمن روى، وحُكْم لمن قضى". [2]

وسائر الكتاب على هذا الوجه من قوة العبارة وجمالها مع جزالتها ورصانتها، وقد أورد السجع في كلامه لكنه كان سلساً غير متكلف، جميل الوقع، لطيف السبك، حلو التسلسل.

2- **تفسيره للكلمات الغريبة الواردة في الأحاديث والآثار**: كان المصنف – رحمه الله تعالى – يفسر غريب ما يورده من كلمات أثرية ومصطلحات في الهامش لكن بدون ذكر مصدر للشرح ولا مرجع للبيان، ولعل سبب ذلك أنه كان يفسر من عنده ؛ إذ قد بلغ شأواً من الأدب وحَصّل طرفاً من البلاغة يُمَكّنه – عندي– من ذلك، والله تعالى أعلم.

3- **أكثر المصنف – رحمه الله تعالى – من إيراد الآيات الشريفة المنيفة** في كتابه، وهذه مزية عظيمة ؛ إذ إن أحسن مصادر السيرة وأصحها وأدقها وأجملها إيراداً هو كتاب الله تعالى.

4- **أورد كلام منصفي المستشرقين** أو الذين أنصفوا النبي ﷺ في بعض كلامهم، فمن ذلك: "قال الأستاذ موير في كتابه "ترجمة محمد" عليه الصلاة والسلام: إن النصرانية في القرن السابع للميلاد قد أصبحت فاسدة مشوهة، وقال جيبون: إن النصرانية في القرن السابع للميلاد قد استحالت وثنية، فقد أصبحت الوجوه تُولّى شطر الأصنام والأنصاب التي حلت محل الهياكل والمعابد، وأخذ مكانَ عرش الله وعظمته الشهداء والقديسون، ونسب الضالون المضلون صفات الله إلى السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول، وحارت الأفهام في معنى التثليث والاتحاد والحلول، وعموا عن التوحيد.

واضطربت الأحوال الاجتماعية والخلقية في العالم اضطراباً لم يُعهد له مثيل، إذ إن أهل الأديان لم يقتصروا على مجانبتهم الفضيلة بل انقلبت الرذيلة فضيلة أقبل عليها الناس تقرباً إلى الله، تتره عما كانوا يفعلون.

انحطت جميع الأمم إلى مهاوي الرذيلة، وأتى أهل الأديان فيها من أنواع المنكرات ما يندى له الجبين، حقاً إن الله قد أرسل كثيراً من الرسل قبل محمد – عليه الصلاة والسلام– وإن ظهورهم كان حاجة ماسة، غير أن العصور التي بُعثوا فيها واحداً من بعد الآخر لم تبلغ من الظُلمة ما بلغه العصر الذي أرسل فيه النبي العربي، وكلهم قد لاقى شدائد وأهوالاً بيد أن محمداً قد لقي من صنوف

(1) الجُنة: الوقاية، واستلأم: طلب اللأمة وهي الدرع، "المعجم الوسيط": ل أ م.
(2) المقدمة.

الإيذاء والشدائد ما لم يلقه أحد من إخوانه، واضطلع بأعظم الأعباء، واحتمل أكبر المسؤوليات... [1]"

ومن ذلك قوله:

"قال سير وليم موير في كتابه "سيرة محمد ﷺ":

امتاز محمد ﷺ بوضوح كلامه، ويُسْر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما يُدهش الألباب، فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد ﷺ". [2]

ومن ذلك قوله في النبي ﷺ:

"هذب الأمة العربية التي ضُرب بها المثل في الجهل قبل الإسلام حتى أصبحت منار العلم والعرفان للعالم، وفي ذلك يقول كارليل: قوم يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون، فلما جاءهم النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان، وكثروا بعد القلة، وعزوا بعد الذلة، و لم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم."[3]

خامساً: أورد الدلائل العقلية ولم يجعلها تهيمن على النصوص الشرعية:

جمع المصنف – رحمه الله تعالى رحمة واسعة – بين إيراد الدلائل العقلية، وبين الدلائل النصية الأثرية على وجه محكم، فلم يجعل في جمعه هذا الدلائل العقلية مهيمنة على الدلائل النصية كما فعل كثير من أقرانه ومن سبقوه ؛ فقد عاش في عصر تحكم فيه كثير من العقلانيين العصرانيين –إن صح التعبير بهذين المصطلحين – بمقاليد كثير من الأمور، وألفوا كثيراً من الكتب التي زعموا أنها تؤيد ما ذهبوا إليه، لكن المصنف – رحمه الله تعالى – برئ من هذا العمل الخاطئ والفعل القاصر، وأورد النصوص الشرعية بقوة وثبات، و لم يعطلها بدعوى تأويل باطل أو خَوَر أمام ما قعّده المستشرقون بفكرهم القاصر، وفعل المصنف ذلك في حديثه في المعجزات النبوية، وفي تعدد الزوجات، والحجاب، والميراث , وتولي المرأة الحكم، وشهادة المرأة إلى آخر ما أورده في الفصل السابع من كتابه، وكذلك كلامه في الجهاد كلام حسن جميل لا تخاذل فيه ولا ضعف ولا خوف من مخالفة ما قَعّده بعض العلماء –غفر الله لهم– أنه لا جهاد إلا جهاد الدفع فقط. [4]

([1]) ص 64 وما بعدها

([2]) ص 101.

([3]) ص 103.

([4]) انظر ص 233.

سادساً: إيراد القواعد والضوابط العلمية، والأخبار المعرفية والثقافية:

أكثر المصنف – رحمه الله تعالى – في كتابه هذا من إيراد قواعد العلوم المختلفة، وضوابطها، وأورد أخبارًا كثيرة معرفية وثقافية، ومزجها مزجاً حسناً بأخبار السيرة، وكان إيراده لما أورده بدون تكلف ولا ارتكاب شطط، والدلائل على ذلك كثيرة مبثوثة في أكثر فصول كتابه، وهذا أكسب كتابه تشويقاً، وزاده قوة، وأضاف جُسْناً إلى ما فيه من حسن عرض وإشراق بيان، وجميل معارف، وحُسن أخبار في العلوم والفنون.

سابعاً: لغة العاطفة والحماسة:

كتب المصنف – رحمه الله تعالى – كتابه بلغة العاطفة الجليلة الجميلة التي لا تخطئها العين في ثنايا كتابه، وكان فيما كتبه حماسياً مندفعاً في حبه للنبي ﷺ أحسن الاندفاع، وصدر في ذلك كله عن إيمان وإخلاص، نحسبه كذلك والله حسيبه.

و لم يكتف بتلك العاطفة حتى مزجها بنور النصوص وضوابط العقل فجاء كتابه جامعاً لكل تلك الثلاثة على وجه لم أعلم أنه حصل لغيره قبله ولا بعده، ولعل محسناً خَيّراً من محسني المسلمين يعمد إلى كتابه هذا فيصلح ما به من بعض النقائص مما سأذكره – وهو قليل – ويعيد طبعه ليعرف المسلمين به ؛ فقد جهله أكثر أهل العصر وانقطع ذكره، فيما أعلم، والله أعلم.

ومن نقائص كتاب الأستاذ ما يلي:

1- إيراد الأحاديث الضعيفة.

2- إيراد الأحاديث بدون تخريج ولا تحقيق، لكنه يوردها على الجادة بدون تصرف في ألفاظها وهي في أكثرها صحيحة مشهورة.

3- لم يورد أي مصدر لما أورده من أحداث السيرة، ومن الواضح أن المصنف – رحمه الله تعالى – قد اطلع على عدد من كتب السير ونقل منها لكن لا أدري ما الذي دعاه إلى ترك ذكر المصادر والمراجع تركاً كلياً، والله أعلم.

لكنه لما أتى إلى أقوال المستشرقين نسبها إلى كتبهم نسبة واضحة.

4- قوله إن فاطمة - رضي الله عنها - قامت بنصيب وافر في الدعوى إلى إسناد الخلافة إلى علي --رضي الله عنه[1] - وهذا غير صحيح ألبتة فلم يأت بهذا نقل صحيح.

5- قوله ناقلاً عن محيي الدين بن عربي[1] مقرراً له وموافقاً:

([1]) ص 188.

"وإلى ذلك يشير الشيخ الأكبر محي الدين إذ يقول: إن محمداً ﷺ هو الذي أعطي جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح حتى ظهر بجسمه ﷺ"[2] وهذا الكلام لا يساعده نقل صحيح، وقواعد الإسلام العقدية تأباه ولا ترضاه.

هذه بعض نقائص الكتاب، ولا تؤثر – عندي – إلا قليلاً في روعة الكتاب وجلاله وجماله، وأتمنى أن يعاد طبعه بملاحظة ما ذكرت من النقائص السابقة، وتُعرّف الأجيال به ؛ لأنه– عندي – من أحسن كتب السيرة وأجلها مع إيجاز وحسن بيان.

"الموسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي"[3]

هو أستاذ مصري معروف، له عدة كتب، وموسوعة في التاريخ الإسلامي، سماها "موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية"، في عشرة أجزاء، والحقّ أن الرجل باحث مجتهد، وله أعمال جيدة وكتابات موفقة، إلا أن الكثير مما أتى به من التاريخ الإسلامي كان مفتقراً فيه إلى موازينَ شرعية صحيحة، فقد اعترض على بعض ما ورد في الصحيحين وغيرهما مراراً ورآه ضعيفاً بل موضوعاً !! واعترض على أحداث مهمة جرت في سيرة النبي الأعظم ﷺ فأنكرها دون مسوغ إلا أنها تخالف ما رآه بعقله، واتهم بعض كبار الصحابة – رضي الله عنهم جميعاً– باتهامات صعبة.

وليس من غرض هذا البحث أن يبحث في كل ما أورده الرجل في التاريخ الإسلامي، لكن حسبي أن أورد شيئاً مما صنعه في مقدمة موسوعته فيما يخص السيرة النبوية الشريفة المطهرة، **وألحظ الآتي من صنيعه:**

([1]) هو محيي الدين أبوبكر محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المرسي العربي، نزيل دمشق. سكن الروم مدة، وكان ذكياً كثير العلم، وكتب لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهد وتفرد، وعمل الخلوات وكتب شيئاً كثيراً في التصوف على طريقة أهل الاتحاد، وقد عظمه جماعة وذمه كثيرون. توفي سنة 638 وله كتب كثيرة منها كتاب "فصوص الحكام" فيه نصوص لا يتأول لها، وانظر "سير أعلام النبلاء": 23/48–49.

([2]) ص 247.

([3]) أحمد جاب الله شلبي. ولد في الشرقية بمصر سنة 1333/1915. ودرس في المعاهد الأزهرية، وتخرج في دار العلوم بالقاهرة سنة 1365/1945، وحصل على الماجستير من جامعة لندن والدكتوراه من جامعة كامبردج في بريطانيا، وعمل مدرساً بدار العلوم بجامعة القاهرة، ومديراً للمركز الثقافي المصري بأندونيسيا سنة 1375/1955 لمدة ست سنوات، ودرّس بجامعات باكستان وماليزيا وأندونيسيا، وعُين عضواً بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وبالمجلس الأعلى للثقافة، وعضواً في اليونسكو، وله عدة كتب ومقالات وأحاديث في الإذاعة والتلفاز، وحصل على عدة أوسمة من عدة دول. توفي سنة 1421/ 2000 رحمه الله. المرجع: "مفتاح المعرفة": شبكة الانترنت.

1- كان جل اعتماده على كتب التاريخ، وفيها المدخول والضعيف وفيها الحسن، أما كتب الأحاديث الشريفة والصحاح المنيفة فلم يعتمد عليها فيما رأيت، فكان من نتائج ذلك أنه أورد قدراً غير قليل من الأحداث الضعيفة والموضوعة.

والعجيب أنه ذكر أنه في الطبعة العاشرة عالج ذلك الأمر فاغترف من كتب الأحاديث وغير كتابه تبعاً لذلك الاغتراف، لكني لم أجد ذلك واضحاً في كتابه إلا في مواضعَ قليلة[1].

2- كان كثير التجريد لاسم النبي الأعظم ﷺ من الصلاة عليه !! بل يقول: محمد، والرسول في معظم ما يورده في كتابه من ذكر للنبي الكريم – عليه أفضل الصلاة والتسليم – وهذا عجيب من مثله ؛ فقد درس في المعاهد الأزهرية ثم في دار العلوم لكن يبدو أن صنيع المستشرقين قد غلب عليه فقلدهم.

3- تفادى ذكر أحداث مهمة في مدة بقاء النبي محمد ﷺ في ديار حليمة السعدية مثل حادثة شق الصدر الشريف، فاكتفى بالقول الآتي:

"ثم حدثت أحداث غير عادية فيها يُمن وبركة للرسول – صلوات الله عليه – خلال إقامته في بني سعد مما جعل حليمة تخاف عليه فردته إلى أهله، إشفاقاً منها عليه"[2] فهل صنع ذلك إيجازاً أم جرياً على عادة المستشرقين في إنكار مثل تلك الحوادث، الله أعلم بسبب ذلك، لكني أميل إلى السبب الآخر لما رأيته من صنيعه وما سأذكره بعد ذلك ؛ إن شاء الله تعالى.

4- فهم الدكتور – غفر الله له – أن إيراد المؤرخين للغزوات النبوية الشريفة صورت أن "حياة الرسول كانت حروباً متصلة، وكأن الإسلام دين دماء، وذلك ما يخالف الواقع" ثم ذهب إلى رأي غريب يبين به السبب لذلك الصنيع المدخول في رأيه[3].

5- ذكر سبعة أسباب لمقاومة قريش لدعوة ﷺ لكنه لم يذكر السبب العقدي – وهو أهم الأسباب – وأنه المحرك الحقيقي لقريش لرد دعوة النبي ﷺ، وقد رفضوا الإسلام لتمسكهم بأصنامهم تمسكاً عقدياً لا لأنهم كان يبيعونها فيحرصون على ثمنها كما ذكر الدكتور !! ولا لغير ذلك من الأسباب التي ذكرها. [4]

([1]) "موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية": 209/1.

([2]) المصدر السابق:191/1.

([3]) المصدر السابق: 205/1

([4]) المصدر السابق: 218-219.

6- كان الدكتور يغير بعض الألفاظ في الأحداث الواردة في السيرة، ويرويها بالمعنى أحياناً، ولا بأس بذلك إلا أنه صاحب ذلك التغيير شك في سببه، ومثالاً على ذلك أورد قصة أبي جهل ومطله رجلاً باعه إبلاً، فاستشفع الرجل بالرسول ﷺ فذهب معه وأمر أبا جهل بإيفاء الرجل حقه ففعل، فلما لامت قريش أبا جهل ذكر لهم التالي فيما نقله ثقات أهل السِيَر: "ويحكم: والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قَصْرته ولا أنيابه الفحال قط، والله لو أبيت لأكلني."[1]

لكن الدكتور ذكر الآتي:

"لما خرجت إليه وجدت كأنه فوق رأسه قوة هائلة أرعبتني"!! [2]

ولا أدري لماذا هذا التحريف: أهو مراعاة للمستشرقين ومن لف لفهم في إنكار مثل هذه الأمور, أم هو مجاراة لصنيع محكمي العقل في النصوص، أم هو لغير ذلك؟!

7- أورد حادثة الإسراء والمعراج، وقد تخبط الدكتور فيها كثيراً، وأفرد لها صفحات كثيرة[3] لكنه ملأها بعجائب وغرائب، ورد فيها الروايات الصحيحة بتحكم عقلي غريب قواه ببعض النقولات عن أئمة ومشايخ من القدماء والمعاصرين لا تؤيد ما ذهب إليه أبداً لكنه نوع من الاعتساف وليّ عنق النصوص، غفر الله له، وكان مما أورده الآتي:

أ- إنكاره لركوب النبي ﷺ البُراقَ ليلة الإسراء والمعراج، وجاء في ذلك بتعليلات واهية، وأنكر تبعاً لذلك ما اتصل بركوب البراق من أحداث وردت في الأحاديث الصحيحة والحسنة.

ب- أنكر صلاة النبي ﷺ إماماً بالأنبياء في بيت المقدس، وبنى دعواه تلك على أمور عقلية بناها على أوهام ظنها شرعية كقوله "لا عبادة بعد الموت"، مع أن صلاة النبي ﷺ بالأنبياء في بيت المقدس قد وردت في الأحاديث الصحيحة.

ج- أنكر وجود الأنبياء في السموات العلى على الترتيب المذكور في الأحاديث في الصحيحين وغيرهما وبنى ذلك على تُرّهات عقلية.

د- أنكر مراجعة نبيّ الله موسى – عليه الصلاة والسلام – نبينا محمداً ﷺ. في أعداد الصلوات الثابتة في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة بل زعم أن ذلك من الإسرائيليات !! وذكر في ذلك عجائب وغرائب.

---

(1) سيرة ابن هشام: 27/2–28.والقصرة أصل العنق إذا غلظ واشتد: " المعجم الوسيط ": قصر.

(2) "موسوعة التاريخ": 234/1

(3) المصدر السابق: 239/1–263.

ه-أنكر المصنف استفتاح جبريل لأبواب السموات مع النبي ﷺ، وقد ورد في ذلك الصحيحين وغيرهما، وأرجع ذلك – كعادته – إلى حكم عقلي مجرد من الشرع والمنطق الصحيح، والداهية والدهياء أنه ذكر أن الحديث الوارد فيه الاستفتاح موضوع !!

و- ذكر أن في الصحيحيين أحاديث موضوعة !! [1]

وأعاد ذكر ما كتبه في موسوعته في كتيب آخر ألفه في الإسراء والمعراج فقط، وهو الجزء الثالث من مائة جزء سماها " المكتبة الإسلامية المصورة لكل الأعمار" نشرتها مكتبة النهضة بالقاهرة، وفي كتابه الموسوعة وهذا الكتيب جملة من الأخطاء الكبيرة التي نشأت عن منهج خاطئ في التلقي والبحث، وقد زعم أنه إنما أورد ما أورد ليزيل ما علق بالإسراء والمعراج من خرافات وأوهام فإذا به ينكر وقائع صحيحة في السيرة بدون مسوغ علمي.

ثم ختم الدكتور كلامه في كتيبه بقوله: "أيها المسلم: لم يعد هناك مجال للشطحات والخرافات التي تقلل من جلال هذا الحديث العظيم، وقد سجلت لك أدق الآراء".؟ !

والحق أن الذي أورده لا يليق بجلال الحدث العظيم، وأن الذي استبعده ورآه من الخرافات هو ما ثبت في السنة المطهرة المشرفة، وهو ما كان يجب إيراده وعدم استبعاده بما صنعه من نظر عقلي مجرد.

8- لما ذكر معجزات النبي ﷺ سوى القرآن العظيم تخبط فيها فسماها مكرمات، و لم يرتض أن يسميها معجزات، لأنه يرى أن النبي ﷺ لم يتحد بها، ولكنه نسي أن طائفة من تلك المعجزات قد تحدى بها النبي ﷺ وطائفة أخرى كان التحدي بها حُكماً بمعنى أنه يكفى ورود المعجزة على يد النبي ﷺ للتحدي بها ولو لم يقل النبي ﷺ للناس أنا أتحداكم أن تأتوا بمثلها[2]. وعلى هذا فقد أنكر كل معجزة للنبي ﷺ سوى القرآن، وإن كان لم يذهب إلى الإنكار التام لما سوى معجزة القرآن – كما صنع بعض معاصريه – إنما سماها بغير اسمها وخفف بذلك من أثرها المهم في الدعوة إلى الله تعالى، وخالف جمهور المسلمين قديماً وحديثاً. [3]

من مزايا كتاب د. أحمد شلبي:

1- الإيجاز النسبي الذي أورد به أحداث السيرة.

---

[1] المصدر السابق: 36.

[2] " موسوعة التاريخ ": 1/424-429.وانظر "الإرشاد" للجويني:265، و"اليواقيت والجواهر": للشعراني:157، و " تحفة المريد" للبيجوري"91.

[3] انظر موسوعة التاريخ: 1/424-429.

2- الدروس والعظات التي أوردها في أثناء بعض الحوادث، ومن أهم ذلك دروس الهجرة النبوية الشريفة المنيفة. [1]

3- الترجيح في بعض الأحيان بين بعض الأحداث الواردة اعتماداً على طريقة عقلية منضبطة أو نقلاً من أئمة كبار كابن القيم[2].

4- ربط المصنف بين أحداث السيرة وبعض جوانب الحياة المعاصرة ربطاً جيداً كما صنع في ذكر بناء المساجد الأولى في الإسلام , وربط بينها وبين أوضاع المساجد في زماننا هذا[3].

5- حسن تقسيم الكتاب:

أتى المصنف في كتابه هذا بتقسيم حسن أورد فيه جوانب السيرة الشريفة على غير مثال سابق، فقد جاء في الكتاب أقسام مُحدثة لم تُعهد في كتب السير، وذلك على النحو التالي:

1- التاريخ السياسي للعرب قبل الإسلام.
2- الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام.
3- الرسول يبني المساجد للعبادة والدعوة.
4- الرسول الداعية.
5- الرسول في بيته.
6- الرسول يربي الفرد المسلم.
7- الرسول يربي المجتمع الإسلامي.
8- الرسول والقضاة.
9- الرسول والشباب.
10- الرسول والمنافقون.
11- الرسول والنصارى.
12- اليهود والمسلمون.
13- الإسلام والقتال.

([1])المصدر السابق: 1/275-277.

([2])محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة 691، وكان جريء الجنان، واسع العلم، غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. توفي سنة 751 بدمشق رحمه الله تعالى. انظر: "الدرر الكامنة": 4/21-23.

([3])" موسوعة التاريخ ": 1/290-291.

14- الدعوة الإسلامية وفلسفتها.

وبالمقارنة بين المزايا والنقائص أرى أنه يجب التحذير من كتابه، وعدم نشره بين العوام، واستبعاده من الكتب التي تُعد من المراجع المقبولة للسيرة، والله أعلم.

"التاريخ الإسلامي"

للأستاذ: محمود شاكر [1]

مؤرخ معاصر شامي، له كتب كثيرة في التاريخ والجغرافيا، وقد بذل جهداً كبيراً في كتابة تاريخ الإسلام منذ النشأة الأولى إلى يومنا هذا، وله في ذلك قرابة 180 كتاباً.

والذي أريد بحثه ها هنا هو منهجه في كتابة السيرة المطهرة المشرفة التي خصّ بها القسم الثاني من موسوعته "التاريخ الإسلامي"، وقبل أن أذكر تفاصيل منهجه فيها فإني أورد ما ذكره في المقدمة مما يشير إلى طريقة بحثه وكتابته، فقد قال:

"حرصت على إعطاء الصفة العامة للسيرة من خلال ما يتراءى لي، وقد أوفق في بعض الجوانب، وقد يجانبني التوفيق في جهات أخرى، وكنت أحرص على قراءة بعض الخطى الحركية في سيرة رسول الله ﷺ لتكون نبراساً لنا، ودافعاً حركياً لمن يبغي الحركة والدعوة... كما أني لم أكن حريصاً على ذكر الوقائع حسب تسلسلها بغض النظر عن تاريخها الزمني، وإن كان هذا لم يحدث إلا خلال عدد قليل من الحوادث، و لم يتأخر كثيراً عن زمنها..." [2].

1- العرض المبتكر لأحداث السيرة:

عرض المصنف أحداث السيرة على وجه لم يُسبق إليه – فيما أعلم – فقد قسم كتابه إلى أربعة أبواب، سمى الباب الأول " الرسالة " ضمنه فصلاً واحداً سماه "طبيعة الرسالة".

وسمى الباب الثاني "نشأة محمد ﷺ" ذكر فيه حياة النبي ﷺ إلى بعثته الشريفة المنيفة.

وسمى الباب الثالث: "الدعوة في مكة المكرمة".

([1]) محمود شاكر بن شاكر. ولد في حرستا شمال شرق دمشق سنة 1932/1351. درس في قسم الجغرافيا بجامعة دمشق. ودرّس في عدة مدارس، انتقل إلى ا لمملكة السعودية سنة 1972/1392 ودرّس في جامعة الإمام في الرياض الجغرافيا والتاريخ الإسلامي، وشارك في وضع مناهج المادتين، وأشرف على رسائل دكتوراه وماجستير، وله قرابة مائتي مصنف في التاريخ والجغرافيا. وما زال حياً يرزق حفظه الله. الترجمة منقولة من الشبكة العنكبوتية.

([2]) التاريخ الإسلامي: 5.

والكلام فيه نوع اضطراب لكنه مفهوم.

وذكر فيها تفصيلات حياة النبي ﷺ الشريفة المنيفة إلى استقراره في المدينة النبوية المنورة.

وسمى الباب الرابع: "الدعوة في المدينة المنورة".

وأتى فيه على تفاصيل حياة النبي ﷺ في المدينة النبوية المنورة إلى لقائه الرفيق الأعلى جل جلاله.

وفي كل باب أتى بعناوين للفصول مناسبة للمضمون، فمن ذلك: الباب الثاني ذكر فيه الفصول التالية: عهد الطفولة، مرحلة الشباب وقسمه إلى قسمين: الحياة العامة، والحياة الخاصة، وفي الحياة العامة ذكر الآتي: حروب الِفجار، حلف الفضول، بناء البيت، وذكر في الحياة الخاصة: كسب الرزق، السمر، الزواج، الخلوة، ثم في الفصل الثالث ذكر البعثة النبوية الشريفة.

وأتى في الباب الثالث بعناوينَ جديدة مثل: المجتمع الجاهلي ونظرة المسلمين للجاهلية، وأتى بعنوان: "المجتمع الإسلامي"، ذكر فيه: الأخوة، الشعور، التعاون، الطاعة، التضحية، الموقع، النظرة الصحيحة، الحماية، تنقية الصف، إلخ..

وفي الباب الرابع أتى بفصل أول سماه "تأسيس الدولة" أتى فيه بالمؤاخاة والموادعة والأعداء في الداخل: اليهود، المنافقون، أصحاب المصالح، الأعداء خارج المدينة وسرد تحته الغزوات.

فهذا عرض مبتكر لأحداث السيرة لا أعلم أحداً سبقه إليه، والله أعلم، وقد مكنه هذا الوجه في عرض السيرة من مزج الأحداث التاريخية بالعبر والعظات وإبراز الأخلاق الإسلامية.

ثانياً: الجمع بين البسط والإيجاز:

عمد المصنف إلى الأحداث الكبيرة في السيرة مثل بدر وأحد فبسط الحديث عنها بسطاً مناسباً، وعمد إلى الأحداث الأقل أهمية فعرضها على وجه من الإيجاز ليس بعده إلا الإخلال، كما صنع في ذكر غزوة بني أسد على سبيل المثال[1]، وهذا منهج مناسب يؤدي إلى تقليل حجم الكتاب حتى يُقرأ، وهذا مهم في هذا الزمن الذي انصرف فيه الناس عن القراءة إلا قليلاً منهم.

ثالثاً: ذكر الأمور الخلافية بإيجاز:

من منهج المصنف أنه يذكر الأمور الخلافية بإيجاز، فلما جاء على ذكر خديجة – رضي الله عنها – وأولاد النبي ﷺ منها جمع بين الأقوال في عدد أبنائه منها[2].

(1) التاريخ الإسلامي: 245.

(2) المصدر السابق: 340، 352.

ولما أتى إلى ذكر الزواج بعائشة رضي الله عنها ذكر الخلاف في سنها لما تزوجت، وقد استنبط ذلك و لم يأت به صريحاً من مصدر محدد.[1]

ولما ذكر زواجه بالكلبية ذكر الخلاف في زواجه منها ومن غيرها من بني كلاب.[2]

ولما ذكر غزوة بدر وذكر نزول الملائكة فيها علق على ذلك في الهامش قائلاً: "اختلفت آراء العلماء حول مباشرة الملائكة للقتال، ويبدو – والله أعلم – من آيات سور الأنفال أنهم قاتلوا".[3]

رابعاً: ذِكر الأحداث الموثقة فقط والبعد عن المفتراة الموضوعة:

وهذا منهج سار عليه المصنف في ذكر أحداث السيرة، فقد ذكر منها ما هو صحيح – عنده – وترك ذكر الأكاذيب والمفتريات، فلم يعرج عليها، وذلك نحو صنيعه عند ذكر زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها فلم يعرج على الحادثة المفتراة عن رؤية النبي ﷺ زينب وإعجابه بها قبل زواجه منها.

و لم يذكر حادثة الغرانيق المفتراة.

وهذا منهج حسن ؛ إذ ما الفائدة من ذكر ما لم يصح ثم المجاهدة في دفعه ونفيه؟ فالمنهج الأمثل هو غض الطرف عنه تماماً والإعراض عن ذكره إلا إذا اشتهر بين العوام فينبغي ذكره وردّه حينذاك.

خامساً: الإتيان بالآيات الشريفة والأحاديث المنيفة التي تعضد أحداث السيرة:

قد أورد المصنف بعض الآيات الشريفة التي أوردت بعض أحداث السيرة، وكذلك أتى المصنف بأحاديث صحيحة تعضد تلك الأحداث التي أوردها، وهذا يُكسب الكتاب قوة وجودة ؛ إذ أصح السيرة ما ورد في كتاب الله تعالى، وإذا أضيف إليها صحيح الأحاديث كان ذلك نوراً على نور.[4]

وإذا أورد أحاديث من غير صحيـــحي البخاري ومسلم حكم على الحديث بالصحة أو الضعف[5]

([1]) المصدر السابق: 341.

([2]) المصدر السابق: 346.

([3]) المصدر السابق: 187.

([4]) أما الآيات الشريفة فمبثوثة في كتابه كله، وأما الأحاديث الصحيحة فانظرها – مثالاً – في ص: 68، 85، 89، 107، 108، 109، 198.

([5]) انظر – مثالاً – 42، 43، 61.

رابعاً: تحليل الحدث والتعليق عليه:

من مزايا كتاب الأستاذ محمود شاكر أنه يحلل الحدث ويعلق عليه في كثير من الأحيان، كما صنع في الفصل الثاني المعنون بـــ "محاولة القضاء على الدولة الإسلامية الأولى" فقد قال: " **أقام رسول الله** ﷺ الدولة الإسلامية الأولى في المدينة بعد هجرته إليها، وكانت هذه الدولة ولا تزال المثل الأعلى لكل حكومة يقيمها المسلمون في أي عصر، ولكل مجتمع يريد أن يحيا حياة فاضلة كريمة، وكان قائدها رسول الله ﷺ، المثل الأعلى لكل قائد أو حاكم مسلم، ولكل زعيم يريد لشعبه الخير والسعادة وإنقاذه من الجهالة والظلم والظلمات.

ولهذا – وغيره كثير – فإن على دعاة الإسلام اليوم أن يوضحوا للناس معالم هذه الدولة وأن يدعوا إلى القيام بدولة مثلها، وهي التي لا يستطيع إنسان مهما أوتي من شجاعة وجرأة وعلم ونفاذ بصيرة أن يضع أقل نقدٍ فيها، أو أن تكون له ملاحظات عليها، إلا من طمس الله على قلبه وبصيرته، وهذا لا نعيره اهتماماً، لأننا إنما ندعو المسلمين وإليهم نتوجه في هذا الأمر، وعلى هؤلاء الدعاة أن يأخذوا المفاهيم التي كانت تسود مجتمع المدينة آنذاك، ويدعوا إليها بتدبر وحكمة ويقظة وبصيرة حتى تعم المجتمع الذي نعيش فيه، وتكون مجال بحث ودراسة...

بنى رسول الله ﷺ، المسجد النبوي لتظهر شعائر الإسلام، وترتفع كلمة الحق، فتعطي مظهر المجتمع في عقيدته، كما كان هذا المسجد المكان الذي يتلقى فيه المسلمون أمور دينهم وتوجيهاته، والمنتدى الذي تتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي باعدت بينها النزعات الجاهلية، وتأخذ المفاهيم الإسلامية الواحدة، وتستقي الدروس من المبدأ الجديد، فكان مركز تجمع المسلمين، وكان القائد ﷺ يلقي المحاضرات المنتظمة في كل أسبوع في خطبة الجمعة، ثم محاضرات إضافية كلما دعت إليها الحاجة خلال الأسبوع يوضح فيها الخط، ويرسم الطريق، ويبين المنهج الذي يجب أن يسلكه الأعضاء.

ومن هذا المنطلق يجب أن تكون اليوم جماعة مخططة ومنظمة بشكل دائم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقف في وجه الانحراف كلما وجد، وتبقي على تنظيمها ولو صار المجتمع إسلامياً، ولو غدا الحكم بيدها، خوفاً من الانحراف إذ إنها هي صمام الأمان وقد كان رسول ﷺ يعد رأس التنظيم، وأصحابه- رضوان الله عليهم- أعضاؤه وحفظة الخط الذي يوجههم إليه قائدهم، وبانتهاء جيل الصحابة بدأت زاوية الانحراف بالانفراج وإن كانت على قدر بسيط إلا أنه بدأ يزداد مع الزمن، فالجماعة هي التي تحافظ على سير الدعوة، وتحول دون الانحراف.

وإذا لم يكن تنظيم الصحابة قائماً بالمفهوم الحالي للتنظيم إلا أنه موجود من حيث الفكرة وطريقة التطبيق، إذ تلقى الجميع من مدرسة واحدة ومن معلم واحد، تلقياً ليس بالسماع، وتعلماً ليس بالرواية، وإنما بالعمل والتجربة والصحبة، ومن هنا يجب أن يكون التلقي اليوم من مصدر واحد والاستقاء من منهل واحد لتتوحد الأفكار، وتكون المشارب مشرباً واحداً، فإنه عندما كثرت المدارس وتعددت المناهل زاد الانفراج في زاوية الانحراف ثم بدأ الاختلاف.

أعلن رسول الله في دولته أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، فالأمة جماعة من الناس تعيش بعقيدة واحدة، بغض النظر عن انتماء أبنائها لمجموعات من الأجناس أو الشعوب أو العروق، وبغض النظر عن اللغة التي يتكلمها أفرادها واختلافها، وبغض النظر عن كل شيء سوى العقيدة.

أقام رسول ﷺ الحكومة الإسلامية في المدينة، وكان عليه الصلاة والسلام رأس هذه الحكومة، يطبق منهج الله، ويقيم حدوده، وكان أصحابه رضوان الله عليهم مستشارين ووزراء له, كما كان، عليه الصلاة والسلام، قائد الجيش، فإذا سار إلى حرب ولى مكانه أحد أصحابه على المدينة، وإذا مكث عين أحد صحابته على الجيش، هذه الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ من رئاسة للدولة، وقيادة للجيش، وتعيين مقر عام لتلقي الأفكار والتعاليم لمبدأ الإسلام، وإلقاء المحاضرات لتلك الغاية، وتحديد الروابط التي تجمع بين الناس، هي تعريف خاص للأمة المسلمة من دون الأمم، وتنظيم وإعداد لهذه الأمة إعداداً خاصاً، وإيجاد مفاهيم خاصة بها، والاعتماد على مستشارين يرجع إليهم في الملمات، وعقد المعاهدات، وتحديد الصلات مع غير المسلمين، كل هذه من الأمور السياسية الأساسية التي يجب أن يقوم بها أولو الأمر، وكان رسول الله ﷺ يجمع إلى جانب هذه الأمور النواحي الدينية، فهو رسول الله إلى الناس كافة، ولما كان أسوة حسنة، وقائداً لكل حاكم، ورائداً لكل صاحب سلطة، فهذه الأمور كلها من اختصاص الحكام، بل لا يحق لحاكم ترك جانب منها، فالدين يشمل جميع جوانب الحياة من سياسة ودينية واقتصادية واجتماعية، بل تقع كلها ضمن إطار الدين، وتحت عنوانه، وما دام الحاكم يمارس الإشراف على الحياة لرعاياه فهو يشرف على هذه الجوانب كلها.

ولم يكن رسول الله ﷺ ليقصر في ناحية على حساب أخرى، ولا يهمل جانباً لتقوية آخر.

وكذا كان اختصاص كل خليفة جاء من بعده، ولم يخطر في خلد أحدهم أن هناك نواحي يجب أن يمارسها وأخرى عليه أن يهملها ليمارسها غيره، كما لم يحاول أحد من المسلمين أن يفصل الأمور السياسية عن الدين، أو أن ينتقد الحكام المسلمين بأنهم يمارسون السياسة والدين، واستمر هذا الأمر بشكل طبيعي حتى سيطر الأجانب على بلاد المسلمين بالقوة، وأرادوا الإبقاء على الأوضاع التي مكنتهم من السيطرة لاستمرارهم فيها، إلا أنهم اصطدموا بمقاومة المسلمين العنيفة التي تنبع من

دينهم الذي يمنع أتباعه من قبول الخضوع لغير المسلمين، أو للحكام الذين لا يطبقون منهج الله ولو كانوا من المسلمين فوجد الأجانب أن أفضل طريق لهم هو عزل الدين عن الحياة، كما هي الحال في دينهم الذي لا تشريع فيه، وإنما يمارس رجال الدين الطقوس الدينية على حين ينفرد الحكام بتسيير الأمور الدنيوية، وتكون هناك ازدواجية في السلطة، رجال الدين يشرفون على الأمور الدينية داخل كنائسهم وصوامعهم، ورجال الحكم يشرفون على الأمور الدنيوية من داخل قصورهم، وعندما يحدث خلاف لا بد من أن يرضخ أحدهما للآخر، الأمر الذي جعل صراعاً مريراً يقع بين الكنيسة والملوك، انتصر فيه الملوك في النهاية، واعتزل رجال الدين في كنائسهم، ليقوموا ببعض التراتيل والطقوس التي شعر الناس في النهاية أنها لا فائدة منها، وإنما هي أمور ميتة لا تضر ولا تنفع، لا تزيد إيماناً، ولا تدفع بالعقيدة لتلهب الروح وتنطلق بالحياة وتنعشها بالحضارة، وإنما غايتها أن يُحيي منها رجال الدين بعض ما فقدوه في الصراع، وليظهر أنهم يمارسون سلطة ولو داخل جدران أربعة، ولهذا جهد هؤلاء الأجانب على إيجاد فكرة الفصل بين الدين والحياة (الدولة) في بلاد المسلمين، فزعموا أن في هذا الحضارة، وأن التقدمية تستدعي ذلك، وأشاعوا أن للمسلمين الإشراف على الأمور الدينية، ولا علاقة لهم بالسياسة، بينما هم – الأجانب – يسيرون أمور الدولة، ولا يتدخلون في جانب الدين ما داموا من غير المسلمين أيضاً، وفي هذا تقسيم الحياة، وقد وافقهم على فكرتهم هذه المغرضون من أصحاب المصالح والهوى، والذين يقبلون الدنية، والذين يريدون إرضاء الحكام بتأييدهم في كل تصرفاتهم، ليتسنى لهم التقرب منهم، والإفادة من ذلك بحكم قربهم في إرواء شهواتهم، والذين يريدون أن يهيئوا أنفسهم أو يهيئهم الحكام الأجانب ليحلوا محلهم إذا رأوا في ذلك مصلحة، بحيث تؤمن مصالحهم، بل ويحافظ عليها الحكام الجدد، ويمارسون الطريقة نفسها التي كان يمارسها الحكام الأجانب في عزل الدين عن الحياة، ويمارسون الضغط على المسلمين الذين يرغبون في تطبيق منهج الله، ويكيلون لهم التهم وشتى أنواع العذاب، بل ربما كان بعضهم – مع الأسف – من الذين يحلمون جانباً من العلم، أو يلبسون زي أهله، في هذا العصر الذي ابتدع فيه لهم زي خاص، بل وربما يعطون الفتاوى في ذلك، ويتصدرون لإصدارها، وفي كل عصر لا يعدم الحكام الوسيلة للوصول إلى غايتهم عن طريق هؤلاء ؛ فإن في كل مجتمع طلاب مصلحة وزعامة، ومن لا يردعه دينه فإنه يركب كل مركب للوصول إلى هدفه، وسار بعض المسلمين وراء هؤلاء مخدوعين، أو على بينة، حتى عمي على الكثيرين الأمر عندما رأوا أدعياء العلم أمامهم، وظنوا أن السياسة شيء، والدين شيء آخر، ونال أعداء الإسلام ما أرادوا في عزل الدين عن واقع الحياة.

وعلينا بعد هذا أن نعود لرسول الله ﷺ نقتبس من هديه، ونأخذ منه الأسوة الحسنة، ونقتدي بسلوكه وعمله في المدينة عندما كان الحاكم عليها، ليعود إلينا الأمر، ونرد على كل بدعي" [1].

بعض النقائص المنهجية في كتاب الأستاذ محمود شاكر:

قد ورد في كتابه بعض النقائص، وهذا أمر لا يخلو منه عمل بشر، وهاأنذا آتي عليها بإيجاز:

1- الأخطاء في ذكر بعض الحوادث:

قد اخطأ المصنف خطأ لا ينبغي لمثله أن يخطئه لما أورد زواج النبي ﷺ بحفصة، فقد قال:

"لم تكن ذات جمال، و لم يرض بها أحد ؛ إذ عرضها أبوها — رضي الله عنه — على عدد من الرجال، و لم يجد رسول الله ﷺ في مواساتها بزوجها حلاً خيراً من زواجها". [2]

وهذا الذي أورده المصنف ليس بصحيح، إذ إن مَن عرضها عليهم كان لهم سبب في ردها غير ما ذكره المصنف؛ فقد أخرج الإمام البخاري بسنده إلى عبدالله بن عمر – رضي الله عنه – أنه حَدّث "أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خُنيس بن حذافة السهمي وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قد شهد بدراً، توفي بالمدينة، قال عمر: فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا، قال: فلقيت أبا بكر فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبوبكر فلم يَرجع إلي شيئاً، فكنت عليه أوجدَ مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال:

لعلك وجدت عليّ حين عرضتَ حفصة فلم أرجع إليك؟

قلت: نعم.

قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لقبلتها. [3]

فقول أبي بكر رضي الله عنه: "لو تركها لقبلتها" واضح في الرد على المصنف، غفر الله له.

-ولما ذكر زواجه بزينب بنت جحش – رضي الله عنها – ساق في ذلك كلاماً لا ينبغي، فقد قال:

([1]) التاريخ الإسلامي: 2/199–203.

([2]) المصدر السابق: 343.

([3]) صحيح الإمام البخاري كتاب المغازي: باب شهود الملائكة بدراً.

- "إن زينب هي ابنة عمة رسول الله ﷺ وهو الذي أجبرها على الزواج بزيد فهو المسؤول عنها إذن ويجب ألا يضيعها"[1] والخطأ هنا في قوله "أجبرها على الزواج بزيد"، فما كان النبي ﷺ ليجبرها على شيء، هذا وقد قال الحافظ ابن كثير[2] – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[3]، قال "قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة , رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ,رضي الله عنها, فخطبها فقالت: لست بناكحته.

فقال رسول الله ﷺ: بلى فانكحيه.

قالت: يا رسول الله: أؤامر في نفسي؟ !

فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ:: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الآية. قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟

قال رسول الله ﷺ: نعم.

قالت: إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي"[4]

فأين الإجبار المزعوم ها هنا إذن؟

2- عدم ذكر المصادر التي اعتمد عليها في سرد السيرة:

لم يذكر الأستاذ محمود شاكر في كتابه في السيرة المصادر التي اعتمد عليها في السرد التاريخي، لا في ثنايا الكتاب، ولا في آخره، ولم يذكر لنا ما هي الكتب التي اعتمد عليها في سرده للسيرة، وهذا عيب في التأليف وقع فيه الأستاذ – حفظه الله تعالى ونفع به – فإن الناقد لأي كتاب لا بد له من معرفة المصادر التي اعتمد عليها كاتبه لينظر فيها هل هي موثوقة أو لا؟ وهل هي كافية أو لا؟

([1])التاريخ الإسلامي: 343

([2]) هو الشيخ الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير البُصروي، عماد الدين، ولد سنة 700 أو بعدها بيسير، ونشأ بدمشق، وسمع من طائفة، واشتغل بالحديث، وجمع التفسير، والتاريخ الذي سماه " البداية والنهاية"، وله عدة مصنفات سارت في البلاد. كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة. مات سنة 774 وكان قد أضرَّ في أواخر عمره. انظر "الدرر الكامنة": 399/1-400.

([3]) سورة الأحزاب: آية 36

([4]) تفسير القرآن العظيم: 1266

وهل هي من مصدر واحد أو أكثر من مصدر؟ ثم إذا كانت المصادر متعددة فأيها الذي اختاره المصنف أصلاً يعتمد عليه ويعود إليه؟ أو أنه اختار طريقة النص المختار الملفق من عدة مصادر؟ وهذا في ظني النقيصة الكبرى في عمل الأستاذ، حفظه الله ونفع به.

وأرى أن الرجل ذكر كثيراً من نصوص السيرة بعبارته هو، وذكر بعضها الآخر كما وردت في المصادر التي لم يذكرها.

أما المصادر التي اعتمد عليها في غير السرد العام فكان يذكرها، فقد ذكر تفسير ابن عطية[1] ,رحمه الله[2]، وذكر كتاب "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد , رحمه الله تعالى[3]، و"معالم في الطريق" له أيضاً [4]، وذكر "البداية والنهاية" للحافظ ابن كثير[5]، وذكر "فتح الباري" للحافظ ابن حجر[6] رحمهما الله تعالى[7].

"دراسات في السيرة النبوية" للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل

هو مؤرخ عراقي[8]، تدور أكثر دراساته وأبحاثه على التاريخ: دراسةً ونقداً وعرضاً لأعمال الغير، وسآتي على منهجه في دراسة السيرة النبوية المشرفة المطهرة بإيجاز يناسب البحث، فأقول وبالله التوفيق: إن الأستاذ قد صنف كتاباً في السيرة المطهرة سماه "دراسات في السيرة النبوية" وهو كتاب

---

(1) هو الإمام العلامة شيخ المفسرين عبدالحق بن غالب بن عطية الغرناطي. كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية، ذكياً فطناً، من أوعية العلم، ولد سنة 480 وتوفي في لُوْرقة من الأندلس سنة 541. انظر سير أعلام النبلاء: 587/19–588.

(2) ص: 198.

(3) ص: 212.

(4) ص: 45.

(5) ص: 299

(6) هو أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي، ويعرف بـــ"ابن حجر" وهو لقب لبعض آبائه، ولد سنة 773 بمصر العتيقة، ونشأ بها يتيماً، وحفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجد في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وتصدر لنشره وإقرائه. ولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنفات النافعة المشهورة. توفي في القاهرة سنة 852 رحمه الله تعالى. انظر "الضوء اللامع": 36/2–40.

(7) ص: 47.

(8) مؤرخ عراقي ولد في الموصل سنة 1939/1360 حصل على البكالوريوس في التاريخ من جامعة بغداد سنة 1962/1382 والماجستير من الجامعة نفسها سنة 1965/1385 والدكتوراه من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة سنة 1968/1386. درّس في جامعة الموصل وأدار مكتبة المتحف الحضاري في الموصل ودرّس في عدة جامعات في الأردن والإمارات والعراق. وشارك في إعداد مناهج عدة جامعات، وله كتب عديدة وأبحاث كثيرة، وهو – أيضاً - كاتب مسرحي وناقد وأديب، وهو معدود من فلاسفة المؤرخين. حفظه الله ومتع به.

وسط بين الإيجاز والإطناب , سرد فيه المصنف السيرة المطهرة على وجه جامع بين طريقة المؤرخين القدامى في السرد المتصل لأحداث السيرة أحياناً وبين طريقة بعض المُحْدَثين في التحليل وإعادة توزيع مادة السيرة.

ومن مزايا كتابه هذا هو الآتي:

أولاً: التوثيق الجيد لكل ما ينقله:

وثق المصـــنف – حـــفظه الله تعالى – ما نقله من كتـــب السيرة في هامـــش كل صفحة، وقد رجـــع إلى كتب قـــدامى المـــؤرخـــين كالـــذهبي[1], وابن هـــشام[2], والطبري[3] , وابن سعد[4] ورجـــع كذلك إلى كتب المحدثين مثل جواد علي في كتابه "تاريخ العرب" ورجع إلى كتب المستشرقين مثل "حياة محمد" لدرمنغم، و"محمد في مكة" لمونتغمري وات.

ثانياً: النقد:

المصنف قد نقد كل ما يفتقر إلى نقد مما أورده من أحداث السيرة، وهو في نقده هذا له عدة طرق، فمنها أن يحيل على نقد مصنف آخر، كما صنع بحادثة الراهب بحيرى فقد ذكر في الهامش أنه "لم يقف إزاء الرواية ناقداً ممحصاً سوى ابن سيد الناس في "عيون الأثر" ص 34 (مكتبة القدس، القاهرة 1356هـــ)، والذهبي في "تاريخ الإسلام 38/1،39 (مكتبة القدس، القاهرة)، انظر بحث "تحقيق قصة بحيرى" للدكتور محسن عبدالحميد (مجلة الجامعة عدد 4 سنة 9 ص 69 – 73).

ولما فرغ من كل ذلك ذكر أنه سيعود إلى تحقيق المسألة في فصل آخر [5](1)

([1]) هو محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله التركماني الذهبي محدث عصره، ولد سنة 673، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره 18 سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة، توفي سنة 748 بعد أن أضر رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في "طبقات الشافعية الكبرى" 9/100-123.

([2]) هو عبدالملك بن هشام بن أيوب السدوسي وقيل الحميري، المعافري، البصري، أبو محمد العلامة النحوي الأخباري، نزيل مصر، هذب السيرة النبوية. توفي سنة 218هـــ. انظر "سير أعلام النبلاء": 10/428 وما بعدها.

([3]) هو محمد بن جرير بن يزيد، الإمام العَلَم الكبير المجتهد،أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمل طبرستان، وُلد سنة 224هـــ، وتوفي ببغداد سنة310هـــ، رحمه الله، انظر: "سير أعلام النبلاء": 14/ 267- 282.

([4]) هو محمد بن سعد بن منيع، الحافظ العلامة الحجة، أبو عبدالله البغدادي، كاتب الواقدي، ومصنف "الطبقات الكبرى" في بضعة عشر مجلداً و"الطبقات الصغرى" وغير ذلك. ولد بعد الستين والمائة وتوفي سنة ثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وستين سنة: انظر "سير أعلام النبلاء": 11/664.

([5]) انظر ص 226 الفصل الثامن.

ومنها أنه ينقد بنفسه ما يورده، وهو الأكثر، وهو في نقده لا يكاد يستثني شيئاً يستحق النقد إلا ونقده ما خلا الأحاديث والآثار الضعيفة التي أوردها فهو لا ينقدها غالباً، وسآتي على هذا قريباً إن شاء الله تعالى في المطلب القادم.

ومما ينقده -وهو يُكسب كتابه هذا قوة وجودة- ما اختاره المستشرقون من تفسيرات باطلة لأحداث السيرة، فمن ذلك نقده لمونتغمري وات في تفسيره بقاء المسلمين في الحبشة بخلاف وقع بينهم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوعز لمخالفي أبي بكر بالهجرة إلى الحبشة تفادياً لأخطار هذا الخلاف!! [2]

ثالثاً: إعادة توزيع مادة السيرة:

لم يلتزم المصنف في كتابه إيراد مواد السيرة تباعا كما صنع الأقدمون، بل أتى بها على غير جادّة تصنيفهم فى غالب الكتاب إلا في مواضع يسيرة التزم فيها بالسرد على طريقة القدامى، وقال في ذلك:

"لم أشأ – من أجل تركيز الصورة وتحديد أبعادها بدقة — أن ألتزم الخط الزمني لأحداث السيرة، ذلك الخط الذي وقع في أسره معظم الباحثين، فضاعت في مجراه حقائق، وطُمست دلالات وقيم ما كان لها أن تضيع أو تنطمس، قسمت وقائع السيرة إلى وحدات متجانسة خُصص لكل وحدة منها مساحة مناسبة في البحث، استقصيت فيها سائر جوانبها، ونسقت جُلّ وقائعها، وحللت معظم دلالئلها وقيمها". [3]

وإليكم عناوين فصول كتابه لتدل على الطريقة التي سرد بها أحداث السيرة:

الفصل الأول: محمد صلى الله عليه وسلم بين الميلاد والنبوة.

الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي.

الفصل الثالث: مسائل من العصر المكي.

الفصل الرابع: تحليل الهجرة.

الفصل الخامس: دولة الإسلام في المدينة.

الفصل السادس: الصراع مع الوثنية (المرحلة الأولى).

([1]) انظر الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي: القسم الثالث ص 34.

([2]) انظر الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي: القسم الثالث ص 34.

([3]) المقدمة: ص6

الفصل السابع: الصراع مع الوثنية (المرحلة الثانية).

الفصل الثامن: العلاقات بين الإسلام والجبهة البيزنطية.

الفصل التاسع: الصراع ضد اليهود.

الفصل العاشر: حركة النفاق في العصر المدني.

ثم الخاتمة.

وبهذا التقسيم جاء كتابه على وجه متفرد بين كتب السيرة.

رابعاً: التحليل:

ملأ المصنف كتابه بالتحليل الجيد لأحداث السيرة، فلم يخل فصل من كتابه منه، فعلي سبيل المثال لحظ المصنف في الفصل الأول المعنون: "محمد ﷺ بين الميلاد والبعثة" أن " الإطار التاريخي لسيرة رسولنا ﷺ منذ مولده حتى وفاته يضم حشداً كبيراً من الروايات يكثر ويتكاثف في مرحلة، ويقل ويتباعد طيلة[1] الأربعين سنة التي سبقت مبعثه في غار حراء، فلا يكاد يغطي سوى مساحات قليلة من هذه السنين الطويلة، ولا يكاد يرسم سوى خطوط عريضة عن طفولة وشباب الرجل الذي قُدر له أن يعيد صياغة الحياة الدنيا بما ينسجم ونواميس الكون، وتلك هي الصعوبة الكبرى في تاريخ الرجال الكبار في حياة البشرية، إن اهتمام الناس بأبطالهم يقتفي أثر النواميس الطبيعية ذاتها، فحيثما تجمعت الأضواء في جانب حيثما زادت الظلال المجاورة عتمة وخفاء، وما إن يبرز البطل فجأة على مسرح الأحداث حتى تُسلط عليه الأضواء فلا يتبقى من سيرته أية ساعة غير معرضة للإنارة والتلوين، لكن قبل أن يظهر، قبل أن يجيء من وراء الكواليس يحيطه الغموض ويصعب على الناظرين تمييز جل مساحات حياته مهما امتدت سنو هذه الحياة".[2]

والمصنف على جودة تحليله إلا أني أخالفه فيما ذهب إليه، فحياة النبي ﷺ قبل البعثة وصل إلينا منها قدر كاف، وقد كانت حياة طبيعية مثل حياة سائر الناس إلا أنها أشرف وأطهر وأبعد عن مواطن الفساد والدنس، لكنها تظل مثل حياة سائر القرشيين لا اختلاف كبيراً فيها، وهذا – والله أعلم – حتى تكون حياته بعد البعثة مختلفة تماماً ليقوم البرهان على نبوته، وتتضح الآية في رسالته.

ومن التحليلات الجيدة أيضاً قوله عن حادثة شق الصدر الشريف:

([1]) كذا قال، والصواب طوال أو نحوها.

([2]) ص: 37.

"فما دمنا بصدد تحليل المؤثرات البيئية والوراثية والغيبية في تكوين الرسول ﷺ وتهيئته للرسالة فإن حادثة شق الصدر تقف في القمة من المؤثرات جميعاً، صياغة روحية مادية لشخصية النبي الإنسان، وتهيئته من لدن العليم بمنسربات النفوس، الخبير بتعقيدات الشخصية البشرية لكي يكون هذا الرجل بالذات ووفق تكوينه الموجه هذا قادراً على التقاط إشارة السماء ومقابلة الوحي، وتحمل المسؤولية نبياً إلى الناس جميعاً، صاعداً بهم إلى القمم الشامخة التي تنقطع دونها أنفاس الرجال".[1]

ويُكثر المصنف من التحليل فيكاد يوجد في كل الكتاب، بل قد أفرد فصلاً خاصاً في كتابه ذي الفصول العشرة لتحليل أحداث الهجرة، وهذا التحليل هو الذي تميز به كتاب المصنف عن غيره بل جعله- عندي- فليسوف السيرة الأول، إن صح إطلاق هذا التعبير، فقد ربط أحداث السيرة بالجوانب النفسية والتاريخية والبيئية والدينية والاجتماعية ربطاً جيداً محكماً.

وهو في تحليله هذا لا يفوته أن يورد العبر والعظات المستمدة من أحداث السيرة، لكنه لا يوردها على وجه إيرادها المعهود، لكنه يوردها على هيئة فلسفية كلامية أفقد بعضها بعض بريقها، لكن هذه كانت طريقة المصنف في كتبه لم يستطع الانفكاك عنها ولا إخاله يريد ذلك، ولم تمنعه طريقته المطردة هذه أن يلين قليلاً أحياناً فيورد بعض العبر والعظات على وجه حسن كما صنع في حادثة غضب الأنصار بسبب توزيع غنائم حنين وما حدث بعدها من استرضاء رسول الله ﷺ الأنصار على وجه رائع عاطفي جميل جداً، فقال:

"إن هذه الكتلة النقية في تاريخ الحركة الإسلامية يجب أن تظل على نقائها تعطي ولا تأخذ ؛ لأن الذي قادها إلى الإيمان ورفعها مجاهدة في طريقها اللاحب[2] الطويل شيء آخر غير اهتمامات الذهب والفضة، إنه النور العميق الذي انقدح في أعماقهم يوم بايعوا الرسول ﷺ وأما الكتل الجديدة في تاريخ الدعوة فأسلوب التعامل معها وكسبها وكف أذاها غير أسلوب التعامل مع كتلة كالأنصار آثر رسول الله ﷺ أن يبقي معها دوماً حياً وميتاً". [3]

بعض النقائص في كتاب الأستاذ عماد الدين خليل:

لا يخلو كتاب بشري من نقائص، هذه سنة الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وكتاب الأستاذ – على جودته – لا يخلو من بعض النقائص أوجزها في الآتي:

أولاً: اضمحلال لغة العاطفة في كتابه:

([1]) ص: 44.

([2]) الواضح.

([3]) الفصل السابع: الصراع مع الوثنية: المرحلة الثانية ص ص213 – 214.

المصنف في السيرة النبوية لا بد له أن يخلط حديثه العلمي بحديث العاطفة، وحديث العقل بحديث القلب ؛ وذلك لأن المقصود من سرد السيرة النبوية عدة أمور منها تعميق محبة النبي ﷺ في القلوب، فلا بد من الأمرين معاً في كتابة السيرة: خطاب العقل وخطاب الروح والقلب، ولئن أُريد مثال لهذا فكتاب الأستاذ محمد الغزالي -رحمه الله تعالى - فقه السيرة، فإن المرء لا يكاد يملك دموعه وهو يقرأ كثيرا من صفحات ذلك الكتاب.

أما الأستاذ عماد الدين خليل فقد جعل كتابه علمياً محضاً — في أغلب صفحاته - خاطب فيه العقل وأجاد لكنه لم يستطع خطاب القلب الخطاب المناسب.

ثانياً: بعض الأخطاء التاريخية:

وقع في كتاب الأستاذ بعض الأخطاء التاريخية منها قوله في سرية الدعوة:

"إن سرية الدعوة في هذا العهد، وتواصي المسلمين بالحذر والحيطة وتلافي الاصطدام المباشر مع المشركين لا يعني أن المجابهة العقيدية بين الدين الجديد والشرك كانت صامتة بل إننا نجدها أعنف ما تكون في القرآن نفسه وفي آياته الأولى ؛ ففي سورة العلق حملة عنيفة على أحد زعماء قريش في وقت لم يكن النبي قد آمن بدعوته -بعد- سوى نفر يعدون على الأصابع..." وقد فات المصنف أن حادثة أبي جهل المذكورة في سورة العلق كانت بعد الجهر بالدعوة وليس في زمن سريتها، فقد قال الإمام ابن كثير —رحمه الله تعالى — في تفسيره سورة العلق:

"قال البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزَري، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عُنُقه. فبَلغ النبي ﷺ فقال: "لئن فعله لأخذته الملائكة"...

وروى أحمد، والترمذي وابن جرير -وهذا لفظه-من طريق داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد: ألم أنهك عن هذا؟ وَتَوعَّده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا! فأنـــزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه، حدثنا نعيم بن أبي هند، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفِّرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يُصَلي ليطأ على رقبته، قال: فما فَجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي

بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خَنْدقاً من نار وهَولاً وأجنحة. قال: فقال رسول الله: "لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا". قال: وأنـــزل الله -لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا-: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ إلى آخر السورة".

ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن يصلي في المسجد الحرام إلا في مدة الدعوة الجهرية.

ومن الأخطاء ما ذكره في الفصل الثامن "العلاقات بين الإسلام والجبهة البيزنطية"[1] فقد أورد عن بعض المصنفين المحْدثين أن النصارى في مكة كانوا كثرة وكان لهم مقبرة في مكة، وأن النبي ﷺ كان يتصل بهم في مكة، وكل هذا ليس بصحيح إلا إن المصنف أورده إيراد الراضي به المسلم بما فيه!

ومنها ما ذكره أن المسلمين قطعوا في غزوة تبوك آلاف الأميال وهذا ليس بصحيح فتبوك تبعد عن المدينة أقل من 450 ميلاً.

ثالثاً: ذكره بعض الروايات الضعيفة:

ذكر المصنف بعض الروايات الضعيفة و لم ينقدها، وذكر روايات أخرى ضعيفة ونقدها، فمن الروايات الضعيفة التي أوردها و لم ينقدها ما روي أن رسول الله ﷺ قال: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه" [2]

أما الروايات التي نقدها فمنها ما أورده عن ابن سعد من محاولة زعماء قريش اغتيال النبي ﷺ في أول الدعوة، فقد قال مؤمئاً إلى ضعفها: "ويورد ابن سعد رواية لا نجدها في المصادر الأخرى، ولا ندري مدى صحتها...". [3]

والمصنف لا يحكم على ما يورده من أحاديث وآثار.

هذا ما استطعته من بيان منهج المصنف في كتابه، وقد أوجز هو نفسه ما ينبغي أن تكون كتابة السيرة عليه فقال في مقالة له:

"1. النظرة التجزيئية إلى السيرة:

إلى عهد ليس ببعيد -ربما يكون منتصفَ القرن الماضي- كانت البحوث والدراسات والمصنفات المعنية بسيرة رســـول الله ﷺ وعصر الرسالة تنحو - في معظمها- منحى تقليدياً يرمي

([1]) ص 230 – 233

([2]) الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي: ص 56.والحديث ورد في " دلائل النبوة " للبيهقي بسند ضعيف.

([3]) المصدر السابق.

بثقله في اتجاه المعارك والغزوات والشمائل، وقد يعالج المفردات الدعوية والتشريعية والسلوكية منفصلة عن سياقها العضوي العام ؛ لكنه لم يكد يلتفت إلى البعد الحضاري لهذا العصر الذي أقام دولة كبرى، ونسج تشريعاً خصباً، وهيأ الشروط لقيام حضارة متميزة.

ثم إن معظم الباحثين سَحَبوا رؤيتهم التجزيئية في تعاملهم مع العصر إلى صِيَغ التعامل مع «المصادر» التي استقَوا منها مادتهم التاريخية؛ فلم يحاولوا –إلا في القليل النادر– أن يكسروا الفواصل بين أنماط تلك المصادر، وأن يستدعوا كل تلك الأنماط من أجل وضع أيديهم على الصورة الأكثر مقاربة لسيرة رسول الله ﷺ وعصر الرسالة: القرآن الكريم وتفاسيره، الحديث النبوي الشريف، كتب الأدب ودواوين الشعر، كتب الفقه، كتب الجغرافيا والرحلات؛ فضلا عن كتب التاريخ في أنماطها كافة: السيرة، التاريخ العام، التاريخ المحلي، تواريخ المدن، التراجم، الأنساب والطبقات.

هذا إلى أنهم التزموا الخط الزمني لوقائع السيرة، فكانوا يتحدثون عن وقائع كل سنة مُجتزأةً عن وحدتها الموضوعية، أسوة بما كان الأجداد يفعلونه فيما يُسمّى بالحَوليات. وكان هذا يمارس تقطيعاً للوقائع الأساسية، واختراقاً لنسيجها بوقائع أخرى تتحرك في سياق مغاير، كأن يتم الحديث في السَنة أو الحولية الواحدة عن الصراع ضد الوثنية واليهود والبيزنطيين والمنافقين، جنبا إلى جنب مع المعطيات التشريعية أو الدعوية أو التعبدية أو السلوكية...الخ.

كما أن الرؤية النقدية كادت أن تغيب عن تلك الأعمال؛ فكان أصحابها يسلمون بالغث والسمين، ما يمكن قبوله وما لا يمكن، الأمر الذي أضاف إلى وقائع السيرة الأساسية أجساماً غريبة، وقادها إلى نوع من التضخّم على حساب بنيتها الأصيلة المتّفق عليها.

2. المنهج الأكاديمي والسيرة:

ولحسن الحظ بدأ النصف الثاني من القرن الفائت يشهد تطوراً ملحوظاً في دراسات السيرة، على مستوى المنهج والموضوع، وراحت هذه الدراسات تزداد –بمرور الوقت– نضجاً وإحكاماً بسبب من الوعي المتزايد بمطالب منهج البحث من جهة، والرغبة العلمية الصادقة في الرد على المحاولات الجانحة في التعامل مع السيرة، سواء جاءت من الخارج على يد المستشرقين بأجنحتهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم كافة، أو من الداخل على أيدي المغالين أو المنساقين وراء الميول والأهواء والتحزبات، أو المتأثرين بالمعطيات الاستشراقية في توجهاتها كافة.

ثم جاء تنامي النشاط الأكاديمي، وتزايد رسائل الدراسات العليا في المعاهد والجامعات، لا لكي تُعزز القيم المنهجية الأصيلة في التعامل مع وقائع السيرة فحسب، وإنما أيضا لكي تنفّذ دراسات معمّقة في هذه الواقعة أو تلك، وفق معايير نقدية صارمة، وقدرة على الإمساك بالدقائق والتفاصيل

والجزئيات، تُعين الباحث على الإيغال في شرايين الواقعة من أجل الوصول أو محاولة الوصول إلى بنيتها الأساسية كما تشكلت فعلاً، لا كما أراد لها الرواة والأخباريون والمؤرخون أن تكون.

وفي موازاة هذا، أخذت تظهر دراسات تخصصية في السيرة باتجاه آخر لا تقف عند هذه الواقعة أو تلك في نسيجها العام، وإنما تتعامل معها ككل، ولكن من منطلق منهجي محدد يسعى لأن يتابع معطيات السيرة عبر هذا التوجه أو ذاك من مجراها العام.

وهكذا ظهر كتاب «فقه السيرة» للغزالي لكي يقدم رؤية دعوية للسيرة، وكتاب البوطي بالعنوان نفسه لكي يقدم رؤية فقهية، والشهيد سيد قطب ومنير الغضبان لكي يقدما رؤية حرَكية، وباحثون آخرون قدموا رؤية تربوية أو أخلاقية أو سلوكية أو سياسية، هذا إلى قيام الدكتور أكرم العُمري وعدد من طلبة الدراسات العليا بتنفيذ منهج المحدّثين في التعامل مع مرويات السيرة.

وفي موازاة هذا كله استمرت مكتبة السيرة تشهد دراساتٍ شموليةً تتناول السيرة في حلقاتها كافة، ولكن وفق منهج أكثر دقة وانضباطاً وإحكاماً، يسعى لأن يضم جناحَيه على أبعاد السيرة كافة؛ دعوية وحركية وفقهية وسلوكية وسياسية وعسكرية، محاولاً ألا يمرر إلا المرويات الأكثر قبولاً على مستوى الرواية والدراية، أو الإسناد والمتن.

3. البعد الحضاري للسيرة:

ولكن رغم هذا العطاء السخي، ظلّت هنالك حلقة لم تنل حظها من البحث والدرس والاستقصاء والتحليل، بالمقارنة مع الحلقات الأخرى؛ تلك هي الحلقة الحضارية، أو بعبارة أكثر دقة، محاولة متابعة البُعد الحضاري للسيرة، وتقديم تصوّر متكامل عن معطياته الأساسية.

ورغم أن العقدين الأخيرين شهدا عددا من المحاولات في هذا الاتجاه لا تتجاوز – ربما– أصابع اليد الواحدة، فإن الحاجة لا تزال تتطلب المزيد من المحاولات، من أجل إعطاء هذا الجانب من السيرة حقه، والإلمام بجوانبه كافة.

لقد بشر عصرُ الرسالة بمشروع حضاري، وتمكّن من تنفيذ العديد من حلقاته، ووضع شبكة من الشروط التأسيسية التي مكّنت الأمة الناشئة من بناء حضارتها المتميزة بعد عقود معدودة من الزمن.

عشرات السنين ومئاتها، ونحن نتحدث عن هذا العصر من الداخل، وبرؤية تجزيئية تتمرْكَز عند الغزوات، والشمائل، والمفردات الفقهية. ولقد آن الأوان لاعتماد «رؤية الطائر» إذا صح التعبير، لاستشراف الملامح الأساسية للعصر، والإنجازات الكبرى لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

ولا بد، من أجل التحقق برؤية كهذه، من استدعاء المؤرِّخ والمفسر والمحدّث والفقيه والجغرافي وفيلسوف التاريخ والأديب لتوسيع نطاق الفضاء المعرفيّ عن العصر، هاهنا حيث يصير النصّ القرآني والحديث النبوي الصحيح والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه، والملامح البيئية التي يقدمها الجغرافي، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الشاعر أو الأديب، فضلاً عن الدلالات المحدِّدة للكلمات والتعابير التي يحددها اللغوي، هاهنا المصادر الأساسية التي يكمّل بعضها الآخر من أجل تحديد ملامح المشروع الحضاري الذي وعدت به ومهدت له، ووضعت شروطه التأسيسية، ونفّذت بعض حلقاته «سيرةُ» رسول الله ﷺ.

إننا ونحن نتحدث عن «السيرة» وشروطها المنهجية، يجب ألا ننسى لحظة واحدة أن القرآن الكريم هو الوثيقة «التاريخية» الأكثر أهمية في دراسة العصر ومحاولة الإلمام بنبضه الأساسي وملامحه المتفرّدة. وإنه (أي القرآن الكريم) ينطوي على شبكة خصبة من المعطيات التاريخية التي تحمل مصداقيتها المطلقة، والتي تشكل -بالتالي- نقاط الارتكاز في بنية السيرة حيث يجيء المحدث والفقيه والمؤرخ واللغوي والجغرافي والأديب فيقيم بنيانه عليها.

4. الالتحام الحميم بين التنـــزيل والتاريخ:

وبنظرة سريعة إلى «أسباب النـــزول» في التفاسير القرآنية والمصادر الخاصة بالموضوع يتبين للمرء الالتحام الحميم بين التنـــزيل والتاريخ. إن المعطى القرآني يرهص، ويصف، ويعقب، وينذر، ويعد، وهو في خطواته الخمس هذه يمارس تغطية تاريخية للعديد من وقائع السيرة المتشكلة في الزمن والمكان، أي في التاريخ.

ولقد تحدث الشهيد سيد قطب طويلا عن هذه المسألة وهو يكتب مقدماته الخصبة في «الظلال»، عبر تفسيره للسور التي قدمت مادة سخية عن العديد من الغزوات والوقائع والمعطيات التشريعية، على مدى عصر الرسالة من بدئه حتى منتهاه، كما تحدث عن طريقة عمل القرآن الكريم في إحداث التغيير، وهو في بدء التحليل ونهايته تغيير تاريخي ينطوي بالضرورة على بعده الحضاري أو العمراني، بالمفهوم الشامل للكلمة.

لقد كانت حياة الرسول ﷺ الكادحة وجهده الموصول حتى آخر لحظة شهادةً حية على قدرة هذا الرجل النبي على الإنجاز والتغيير بكل ما تنطوي عليه الكلمتان مِن بعد حضاريّ، ولقد جاءت شهادة الباحث الأمريكي المعاصر «مايكل هارت» في «المائة الأوائل» تأكيداً لهذا المعنى.

لقد حاول الباحث المذكور أن يستقصي ويدرس بمعيارَي الإنجاز والتغيير، أعظم مائةِ شخصية في تاريخ البشرية، ثم مضى لكي ينفّذ خطوة تالية، باختيار أعظم رجل من بين هذه الشخصيات المائة،

وبالمعيارين ذاتهما، فإذا باختياره يقع على محمد ﷺ فيعتبره أعظم شخصية في التاريخ، وذلك في قدرته على تنفيذ إنجاز كبير ومتغيرات انقلابية تنطوي على الديني والدنيوي معاً.

وعندما جاءت السنة التاسعة للهجرة، ونزلت آيات (أو إعلان) براءة في صدر سورة التوبة، لتصفية الوجود الوثني في جزيرة العرب، كان رسول الله ﷺ قد حقّق، وصحابته الكرام – رضي الله عنهم – على مستوى الفعل التاريخي، المنجزات التالية التي ينطوي كل منها على بُعد حضاري مؤكد:

أولاً: التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

ثانياً: الوحدة في مواجهة التجزء.

ثالثاً: الدولة في مواجهة القبيلة.

رابعاً: التشريع في مواجهة العرف.

خامساً: المؤسسة في مواجهة التقاليد.

سادساً: الأمة في مواجهة العشيرة.

سابعاً: الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.

ثامناً: المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى.

تاسعاً: المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.

عاشراً: الإنسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخُلُقية والسلوكية المتجذّرة في العقيدة، في مواجهة الجاهليّ المتمرس على الفوضى والتسيّب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

وكانت آيـــات القرآن الكريم وأحاديث رســـول الله ﷺ وتعاليمه قد أرستْ جملة من القيم المنهجية وآليات العمل التي مهّدت للمتغيرات العشرة الآنفة الذكر، ودعمتْها، ووضعت –إلى جانبها– شبكة من الشروط هيأت المناخ الملائم للفعل الحضاري، ومن بين تلك القيم والآليات:

1. المعرفة هي حجر الزاوية. 2. النـــزوع إلى الأمام. 3. التحذير من هدر الطاقة. 4. مبدأ الاستخلاف. 5. مبدأ التسخير. 6. التحفيز على العمل والإبداع. 7. مجابهة التخريب والإفساد. 8. التوازن بين الأضداد والثنائيات، وتوحدها. 9. التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون. 10. تحرير الإنسان والجماعات والشعوب على المستويات كافة.

لقد جاء الإسلام لكي يتحرك وفق دوائر ثلاث: تبدأ بالإنسان وتمر بالدولة وتنتهي إلى الحضارة التي سيقدر لها أن تَنْداح لكي تغطي مساحات واسعة من العالم القديم.

لقد كان هدف الجهد النبوي في عصر الرسالة هو التأسيس لحضارة إيمانية تستمد منهجها ومفرداتها من هدي الله سبحانه، وتقوم على لقاء الوحي بالوجود، لمجابهة حضارات الكفر والضلال، وإزاحتها، والتحقق بالبديل الحضاري الملائم للإنسان ووظيفته التعبدية والعمرانية , البديل المتوازن في مواجهة حضارات الميل والانحراف: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ النساء: 27

ويبقى عصر الرسالة منجماً سخياً للعطاء وفق هذا المنهج أو ذاك فيما لم يشهده عصر من العصور. وما ذاك إلا لما حققه هذا العصر من تغيير جذري محلياً وإقليمياً وعالمياً، وعلى كل المستويات، ولما انطوى عليه من قيم وخبرات تملك القدرة على الفاعلية والحضور في كل زمان ومكان"[1].

"السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية" للأستاذ أكرم ضياء العمري[2]

كتاب " السيرة النبوية الصحيحة" هو مسار جديد في تدوين السيرة المشرفة المطهرة، يختلف عن كل ما دون من قبل، فلا يوجد كتاب حديث مصنف في السيرة من قبله – فيما أعلم- اشترط أن يورد الصحيح فقط.

سبب تصنيف الكتاب هو الآتي كما ذكر المصنف:

1. إن كثيراً ممن كتب في السيرة في العصر الحديث التزم منهج النقد التاريخي الغربي، وأعرض عن الثروة الهائلة التي هي طرق التعامل مع الروايات التاريخية الإسلامية التي بُذل من أجلها جهود هائلة لمئات علماء الحديث، فلا بد لكاتب السيرة أن يستفيد من تلك الجهود لتصحيح الروايات[3].

---

(1) مجلة حراء: العدد 3.

(2) مؤرخ عراقي ولد في الموصل سنة 1942/1362. حصل على البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية جامعة بغداد سنة 1963/1383 والماجستير من كلية الآداب في الجامعة نفسها سنة 1966/1386 والدكتوراه من جامعة عين شمس في القاهرة سنة 1974/1394. درّس في كلية الآداب جامعة بغداد والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة. وهو الآن في قطر. له مؤلفات وبحوث كثيرة وتحقيقات جليلة، حفظه الله ومتع به، وله مدرسة خاصة في نقد مرويات السيرة. ترجمة منقولة من الشبكة العنكبوتية.

(3) المقدمة: ص 12.

2. إن استعمال منهج المحدثين في نقد المتون والأسانيد سيحل كثيراً من المشكلات في المتون الواردة في السيرة التي تفتقر إلى حل سواء عن طريق الترجيح بين الروايات أو غيره[1].

3. محاولة التعامل مع الرواية التاريخية كما تُعامل الرواية الحديثية لضبط مرويات السيرة[2]؛ وذلك لأن الرواية التاريخية لم تحظ بالقدر نفسه من النقد الذي حظيت به الأحاديث النبوية[3].

منهج المصنف في كتابه:

1. سرد المصنف أحداث السيرة كلها على نهج يخالف نهج الأقدمين في التقسيم؛ فقد جاء على النحو التالي:

الفصل الأول: الرسول ﷺ في مكة.

الفصل الثاني: الرسول ﷺ في المدينة: خصائص المجتمع.

الفصل الثالث: الرسول ﷺ في المدينة: الجهاد ضد المشركين.

الفصل الرابع: الرسول ﷺ والرسالة.

2. عُني المصنف بإيراد السيرة النبوية الثابتة بالمرويات الصحيحة ولم يلتفت إلى ما سواها إلا فيما يتعلق بالتفصيلات المكملة لحدث ما صحيح، وفي ذلك قال المصنف، حفظه الله تعالى:

" قد تبرز معانٍ خلقية ودينية مؤثرة في الروايات التي أهملتها لكني لم أكترث لذلك ما دامت ضعيفة الثبوت، وقد ظهر جلياً أن الاعتماد على صحيح الروايات وحَسَنها يكفل توضيح الأبعاد التاريخية للسيرة النبوية دون حاجة إلى الضعيف من الروايات.

ويلاحظ القارئ أن الروايات الضعيفة من الناحية الحديثية لم تُستبعد نهائياً بل تمت الإفادة منها في الموضوعات التي لا تتعلق بالعقيدة أو الشريعة، حيثما لم نجد روايات صحيحة وفق معايير المحدثين حيث يمكن التعامل معها وفق معايير منهج النقد التاريخي"[4].

ويلحظ في كلامه بعض التناقض بين الفقرتين السابقتين , لكن منهجه الذي سلكه في كتابه هو الذي جاء في الفقرة الثانية. وقال موضحا منهجه الذي اعتمد عليه وارتضاه: "المطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها ثم الحسنة ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق: 13.

(3) المصدر السابق: 17.

(4) المصدر السابق: ص 19.

المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام، وعند التعارض يقدم الأقوى دائماً، أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة الحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي... أما الروايات التاريخية المتعلقة بالعمران كتخطيط المدن وزيادة الأبنية وشق الترع، أو المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها."[1]

3. لم يلتفت المصنف إلى مناقشة دراسات المستشرقين التي أثارت شبهات حول السيرة، وفي ذلك قال المصنف:

"لا يجد القارئ أي اهتمام بالرد على الشبهات التي أثارتها بعض الدراسات الحديثة في موضوعات السيرة وخاصة دراسات المستشرقين سواء كانت نتيجة تعسف في تفسير النصوص والأحداث بسبب الأهواء الدينية والعنصرية، أو بسبب سوء الفهم للغة العربية، أو للإسلام وأحكامه ونظمه ومقاصده ؛ وذلك لأن هذا المؤلَّف قصد إلى رسم معالم السيرة بصورة صحيحة، وهو جانب إيجابي يستحق أن يُفرد فيه مصنف، ولا يعني ذلك التقليل من أهمية تصحيح الأخطاء سواء كانت عفوية أم مقصودة، وقد نهضت بهذا العبء دراسات أخرى في الموضوع، وإن كنت أعتقد أن الاهتمام بالتاريخ الإسلامي ينبغي أن ينصب أولاً على البناء قبل تناول الشبهات".[2] وصنيعه هذا مما تختلف فيه الأنظار بين مؤيد ورافض.

4. عُني بنقل الأخبار عن شهود العيان الذين شاركوا في الحادثة المراد نقلها، وهذه طريقة حسنة.

5. استفاد المصنف من رسائل الماجستير والدكتوراه التي أشرف عليها في دراسات السيرة النبوية خلال عشر سنوات، استفاد منها في كتابته هذا المصنف وتحقيقه النصوص التي أوردها فيه. [3]

6. استعان المصنف بكتب الحديث النبوي الشريف في كتابة السيرة، وعاد إليها كثيراً للترجيح أو التصحيح لكنه لم يستغن عن كتب السيرة والتاريخ فاستفاد منها على الوجه الذي ذكرته في الجانب الثاني آنفاً.

(1) المصدر السابق: 40

(2) المصدر السابق: 18.

(3) المصدر السابق: 23.

وكان من منهج المصنف – حفظه الله تعالى – أن يورد الروايات المنكرة والضعيفة ثم يكر عليها بالبطلان ولو أنه أغفلها تماماً لكان أحسن، لكن بعضها كان يملأ فراغاً تاريخياً كان المصنف بحاجة له فيما يبدو.

- يورد العبر والعظات بإيجاز لكن بعد سياق الرواية التاريخية وتمحيص أسانيدها.

وبعد فراغ المصنف من سرد أحداث السيرة أورد فصلاً رابعاً وأخيراً سماه "الرسالة والرسول" أورد فيه عدة موضوعات بإيجاز وناقش فيها بعض القضايا المثارة حول السيرة، وذلك نحو "معجزات الرسول ﷺ الحسية" اثبت فيه معجزات الرسول ﷺ: القرآن وغير القرآن، وناقش مناقشة يسيره قضية رد المعجزات الحسية – غير القرآن العظيم – الذي قال بها عدد من المصنفين في السيرة في القرن الفائت.

وأورد فصلاً في "فضل الصحابة ووجوب محبتهم وموالاتهم"، وفصلاً في "أمهات المؤمنين"، وفصلاً في "محبة الرسول ﷺ من الإيمان"، وغير ذلك من فصول مجموعها تسعة عشر فصلاً.

هذا هو منهج المصنف في كتابه بإيجاز.

والخلاصة:

لقد كان لبعض المؤرخين المحدثين جهود جليلة في تدوين السيرة النبوية المشرفة المطهرة، وقد اخترت ستة لكلٍ منهم مسار تجديدي في كتابة السيرة، وكل منهم وُصف بأنه مؤرخ.

فالأستاذ محمد الخضري كان له قصب السبق في طريقة تدوين السيرة جمع بها بين السرد وبين العبر والعظات على ما أوضحت في دراستي لمصنفه، ومن مزايا كتابه إقراره بالمعجزات النبوية وإثباته لها بدون تأويل ولا تعطيل مخالفاً لأكثر كتاب السيرة في عصره، أما كونه قد انتكس بعد ذلك – غفر الله له – على ما بينته آنفاً فلا يضرني في شيء إذ إني بينت صنيعه في كتابه هذا فقط لا غيره مما ألفه بعده.

والأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك – رحمه الله تعالى – جمع بين سرد السيرة والشمائل على وجه فريد، تفرد به مطلقاً بين كتاب السيرة المحدثين، فيما أعلم والله تعالى أعلم، وقد كان لكتابه

حلاوة، ولعبارته طلاوة، ولسرده رونق جليل، وصح مع ذلك كله القول بأن لكتابه هذا مساراً جدد به كتابة السيرة.

والدكتور أحمد شلبي أتى بمباحث جديدة لم تعهد في كتابة السيرة، فأعاد توزيع مواد السيرة تحت فصول بعناوين جديدة وتقسيم مبتكر كان له فيه قصب السبق، وهو مسار جديد في تـــدوين السيرة، ولولا المساوئ والنقائص التي بينتها في كتابه لكان لكتابه شأن غير هذا لكن هكذا قُدر.

أما رابع المختارين وهو الأستاذ محمود شاكر فقد تميز كتابه بالعرض المبتكر لأحداث السيرة تحت أبواب وفصول وعناوين لم يسبق إلى حُسنها وجودها، ويضاف إلى هذا جمعه في عرض السيرة بين البسط والإيجاز فيبسط فيما يحتاج إليه البسط، ويوجز فيها يحسن فيه الإيجاز.

والدكتور عماد الدين خليل حاز قصب السبق بكتابه "دراسات في السيرة النبوية" وله فيه مسار تجديدي حسن، ومما برز بقوة من ثنايا كتابه حسن النقد وكثرته وجودته، ومناقشة المستشرقين في دعاواهم وشبهاتهم، وإعادة توزيع أخبار السيرة في فصول بدبعة ذات عناوين مبتكرة، لكن أفضل ما في كتابه – عندي – هو التحليل الكثير الجيد الذي استطاع به أن يخطّ لنفسه مساراً تجديدياً خاصاً بين كتب السيرة الحديثة.

والدكتور أكرم ضياء العمري ابتدأ التصنيف في السيرة من بين المتأخرين بشرط شرطه على نفسه وهو التزام الصحيح، وقد بينت مدى وفائه بشرطه في دراستي لمصنفه، وبصنيعه هذا يصح القول بأنه اختط لنفسه مساراً تجديدياً لم يُعرف في كتب السيرة المشرفة المطهرة الحديثة، وامتاز كتابه أيضاً بإعادة توزيع أخبار السيرة على وجه تفرّد به.

ولكل كتاب من تلك الكتب الستة مزايا غير التي أوجزت ذكرها ها هنا، ونقائص لم أذكرها في هذا السياق اكتفاءً بما ذكرته في موضعه من البحث، وقد اكتفيت بأولئك الستة ولم أعرج على غيرهم ممن كتب في السيرة لأني أرى أن ذكر كل منهم يغني عن ذكر آخر أقل شهرة وسار على خطى الذي اخترته، ومثالاً على ذلك الدكتور حسين مؤنس أغنى عن ذكر منهجه في كتابه "دراسات في السيرة النبوية" أمر وهو أن دراستي لكتاب الدكتور أحمد شلبي وما فيه من نقائص كثيرة يغني عن دراستي لكتاب د.حسين مؤنس – رحمهما الله تعالى – فبين الرجلين تشابه في المنهج وفي السقطات العلمية، بل إن منهج الدكتور حسين مؤنس أشد سوءاً وأكثر جرأة على المصادر الحديثة والتاريخية غفر الله لهما.

وعسى أن يكون فيما أوردته كفاية، ومصوراً لكل مناهج المؤرخين المحدثين في تدوينهم السيرة النبوية المشرفة المطهرة.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المصادر والمراجع

- "الأعلام" خير الدين الزركلي. نشر دار العلم للملايين. الطبعة الخامسة سنة 1980.
- " التاريخ الإسلامي " محمود شاكر.
- "تحذير العبقري من محاضرات الخضري": الشيخ محمد العربي بن التباني السطيفي الجزائري. نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية 1984/1404.
- "تفسير القرآن العظيم": ابن كثير.
- " دراسات في السيرة النبوية": د.عماد الدين خليل. نشر دار النفائس
- "السراج الوهاج لمحو أباطيل الشلبي عن االاسراء والمعراج": حمود التويجري.مكتبة المعارف.الرياض. 1406.
- "السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية":د. أكرم ضياء العمري. نشر مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. الطبعة السادسة 1994/1415.
- "سيرة ابن هشام".
- "صحيح البخاري".
- "محمد صلى الله عليه وسلم: المثل الكامل ": الأستاذ محمد أحمد جاء المولى بك. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة. الطبعة الأولى سنة 1931/1349.
- مجلة حراء: العدد الثالث
- "موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية"
- "نور اليقين في سيرة سيد المرسلين" صلى الله عليه وسلم: الأستاذ: محمد الخضري.طبع المطبعة الجامعة بمصر. سنة 1315.

فهرس الموضوعات

أحمد شلبي " موسوعة التاريخ والحضارة"

محمود شاكر "التاريخ الإسلامي"

عماد الدين خليل "دراسات في السيرة النبوية"

أكرم ضياء العمري "السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية"

الخلاصة

المصادر والمراجع